د. أحمد الطويلي

ملوك القيروان الشعراء

د. أحمد الطويلي

ملوك القيروان الشعراء

مقدمة

حفظت لنا كتب التاريخ والأدب والرحلات أشعارا لعدد من ملوك القيروان خاصة منهم الأغالبة والفاطميين العبيديين والصّنهاجيين، فقد كان هؤلاء الملوك الذين بقيت لنا بعض أشعارهم أدباء وشعراء، كانوا يعقدون المجالس الأدبيّة، ويحيطون أنفسهم بالشّعراء والأدباء والفنّانين من أهل الطّرب، وكانوا يسنون لهم الجوائز ومختلف الصّلات، وقد تكوّن هؤلاء الملوك في اللّغة والآداب، وكثيرا ما كانوا يطلبون الإجازة من الشعراء، وقد نظم هؤلاء الملوك والأمراء الشّعر في العديد من الأغراض مثل الفخر والغزل والوصف والمديح النبوي والزّهد والحماسة وأبدعوا أشعارا يتميّز جلّها بالجزالة وابتكار الصورة ورقة العاطفة، وتبدو في هذه الأشعار شخصياتهم الملوكيّة في علاقاتهم مع زوجاتهم أو حبيباتهم أو رعاياهم أو نداماهم.

ولا غرابة في أن يدبّج هؤلاء الملوك الأفارقة في القيروان أروع الأشعار، فقد كان من المأثور والمعروف أنّ الخلفاء

الراشدين وعددا من الخلفاء الأمويين في دمشق أو قرطبة والخلفاء العباسيين في بغداد قد نظموا القصائد العصماء في عديد الأغراض خاصّة منها ما يتّصل بسجلّ الحروب وسجلّ الغزل وتصوير العاطفة الغراميّة تصويرا وجدانيا شفافا، أو ما يعتلج في ضمائرهم من خواطر وأفكار ومواقف إزاء الحياة والبشر.

ولئن بقي هذا الشعر الملوكي في كتب التّاريخ فلقيمته الوثائقيّة التّاريخيّة عن شخصيّات هؤلاء الملوك والأمراء أولا، ثمّ لقيمته الأدبيّة الفنّية والجماليّة، وليت بعض هذه النصوص تسجّل في الكتب المدرسيّة لجمالها وما فيها من إبداع وخيال فنّي متميّز.

وقد خصّص ابن رشيق في أوّل كتاب «**العمدة**» فصلا ذكر فيه أشعار الخلفاء منهم أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان وعلي بن أبي طالب ومعاويّة بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية. ومن شعر الحسين بن علي هذان البيتان المشهوران :

لعمركَ إنَّنِي لأحِبُّ داراً
تحِلُّ بها سكينَـةُ والرَّبابُ
أحبُّـهُـما وأبْذُلُ جُلَّ مَـالِي
ولَيْسَ لِلائمِي عندي عِتاب

قالهما الحسين بعد أن عاتبه أخوه الحسن في امرأته،

ومن شعر عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه الوعظي الذي يذكّر بشعر أبي العتاهيّة الزّهدي :

أيقـظانُ أنْتَ اليومَ أم أنْتَ حالِمُ
وكيفَ يُطِيقُ النَّومَ حيرانُ هائِمُ؟
فلو كنتَ يقظانَ الغَدَاة لحَرَّقَتْ
جفونًا لعينيكَ الدُّمُوعُ السواجِمُ
نَهَارُكَ يا مَغْرُورُ سَهْوٌ وغَفْلَةٌ
وليلُك نوْمٌ والرَّدَى لكَ لازِمُ

ملوك الدّولة الأغلبيّة

إبراهيم بن الأغلب

دامت الدّولة الأغلبيّة من سنة 184هـ إلى سنة 296هـ أي حوالي 112 سنة. وتولّى الحكم في هذه الدّولة أحد عشر ملكا منهم عدد وافر من الشّعراء، أبرزهم إبراهيم بن الأغلب وابنه زيادة اللّه الأوّل وأبو عقال إبراهيم بن الأغلب.

أمّا إبراهيم بن الأغلب فقد بقي لنا من شعره نصيب لا بأس به، لنا منه ثلاثة عشر نصّاً بين مقطوعة وقصيدة، أغلبها في الشّعر الحماسي والفخري، ومنها في الغزل هذان البيتان الرّقيقان خاطب بهما جلاجل زوجته :

مَا سِرْتُ مِيلاً ولا جَاوَزْتُ مرحلةً
إلا وذِكْرُكِ يُثْنِي دائباً عُنُقِي
ولا ذَكَـرْتُكِ إلا بِـتُّ مُرْتَـفِـقًـا
أرْعَى النجوم كأنَّ الموتَ مُعْتَنِقِي

قال الأمير إبراهيم بن الأغلب هذين البيتين في الحنين إلى جلاجل زوجته وأمّ ابنه ووليّ عهده زيادة اللّه، خاطب بهما هذه المرأة الأثيرة عنده، وهي بعيدة عنه بمصر، وقد خلفها في

مجيئه إلى إفريقية. وقد أهداها إليه الفقيه والمحدّث الليث بن سعد المتوفّى سنة 175هـ/791م. وكان إمام أهل عصره في العلوم الدّينيّة والفقهيّة، وتفيدنا كتب التراجم أنّه كان كبير الدّيار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره بحيث أنّ القاضي والنائب كانا تحت أمره ومشورته، أهله من خراسان وتوفّي بالقاهرة. قال عنه الإمام الشافعي : «اللّيث أفقه من مالك». وقد تتلمذ إبراهيم بن الأغلب عليه في مصر، وكان لا يتخلف عن الحضور في دروسه، ولنجابته أهداه الليث جلاجل وهي جارية فائقة الجمال والذكاء والعلم، وكان لها تأثير كبير في حياة الأمير وتدابيره السياسية والعسكريّة.

* * *

تولّى إبراهيم بن الأغلب الملك على إفريقية من سنة 184هـ إلى سنة 196هـ، وتوفّي وعمره 56 سنة، حكم إفريقية أكثر من إثنتي عشرة سنة، كان واليا على الزّاب أي بلاد الجريد، ثمّ ولاّه هارون الرّشيد على إفريقية، وكان فقيها، حافظا للقرآن الكريم، عالما به، أديبا شاعرا، خطيبا، وصف بالرّأي الحصيف والبأس الشديد والحزم والجرأة والبيان والمعرفة بالحروب ومكائدها.

يقول ابن عذاري عنه : «لم يل إفريقية أحسن سيرة منه ولا سياسة ولا أرأف برعية ولا أوفى بعهد»[1]، وقد طاعت له قبائل

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، مكتبة صادر، بيروت 1950، ج 1، ص 116.

البربر، وتمهّدت إفريقية في عهده، وازدهرت الحياة الاقتصادية بها. وابتنى إبراهيم بن الأغلب قرب القيروان عاصمته الجديدة «العباسيّة» نسبة إلى بني العبّاس، وانتقل إليها بحاشيته، وتسمّى العباسيّة أيضا القصر الكبير أو القصر القديم تمييزا لها عن القصر الجديد المحدث برقّادة وقد بنى إبراهيم العباسيّة سنة 184، سنة توليته الحكم على افريقية، وجعل فيها دار الإمارة وبنى بها جامعا به صومعة مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات، يقول عنها البكري في كتابه «**المسالك والممالك**» : «لم يبن أحكم منها ولا أحسن منظرا، وشيّدت فيها حمامات كثيرة وفنادق وأسواق جمّة ومواجل للمياه، وحفلت العباسيّة بقصور الأغالبة التي أحيطت بحيطان، وكانت تعقد فيها المجالس الأدبية والغنائية، وبالمدينة حي يعرف بالرّصافة تشبيها للعباسية ببغداد.

وقد جمع الأستاذ محمد المختار العبيدي شعر إبراهيم بن الأغلب في كتابه «**الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة**»[1] وقدّمه «شاعرا فحلا كثير الفخر في قصائده بنفسه وببطولاته على غرار ما كان يفعل شعراء الجاهلية والإسلام في قصائدهم» (ص 44).

وقال : «لا يخفى علينا أن بعض أفراد العائلة الحاكمة قد

(1) نشر مشترك عن مركز الدراسات الإسلاميّة بالقيروان ودار سحنون للنّشر والتوزيع بتونس سنة 1994.

أسهموا بصفتهم شعراء في الحياة الأدبيّة وخلّفوا إنتاجا أدبيا بعضه شعر وبعضه الآخر نثر مرسل، كما أنّ الأمراء الأغالبة قد شجّعوا الشّعراء والكتّاب وأغدقوا عليهم الأموال ووصلوهم بالهدايا لحثّهم على مواصلة الإنتاج ولإذكاء روح التنافس بينهم» (ص 296).

* * *

ومن شعر إبراهيم بن الأغلب في الفخر أبيات قالها بعد انتصاره في إحدى معاركه :

لقد علِمتْ سَعْدٌ وأبناءُ مُضر
أنِّي مَنَعْتُ عزَّها أن يُعْتَصَرُ
وأنَّنِي فخارُها لِمنْ فَخَرْ

ومن شعره في الفخر أيضا :

ما سارَ كَيْدِي إلى قومٍ وإنْ كَثُروا
الاّ رَمَي شِعْبَهُمْ بالحزمِ فانصدعا
ولا أقُولُ إذا ما الأمرُ نازلَنِي
يا لَيْتَهُ كان مصروفاً وقد وقَعا
حـتَّى أجَلِّيه قهراً بِمُعْتَزَمٍ
كما يُجلِّي الدُّجَى بدرٌ إذا طلعا
قوماً قَتَلْتُ وقوماً قد نَفَيْتُهُمُ
سامُوا الخِلافَ بأرْضِ الغربِ والبِدَعَا

كُلاً جَزَيتُهُمُ صَدْعاً بصدْعِهِمُ
وكُلُّ ذي عمل يُجْزَى بِما صَنَعَا

وكثيرا ما يخاطب إبراهيم خصومه في الحروب والثائرين عليه من البربر أو الجنود أو العرب بالشعر يتحدّاهم به. انظر عينات كثيرة منه في كتاب «**الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة**» لمحمد المختار العبيدي.

زيادة اللّه بن إبراهيم بن الأغلب

زيادة اللّه الأغلبيّ هو شاعر فحل من شعراء ملوك الأغالبة. وقد ازدهرت في عهده الحياة العلميّة والأدبيّة والاقتصاديّة بالقيروان فكثرت التآليف في فنون الحديث والفقه والتّاريخ والأدب، واشتهر عدد كثير من العلماء منهم الإمامان سحنون وأسد بن الفرات، وقويت الروابط الفكريّة بين القيروان وبلدان المشرق أخذا وعطاء. وانتشر مذهب الاعتزال بالقيروان كما بيناه في فصل في كتابنا «تاريخ القيروان الثقافي والحضاريّ».

وزيادة اللّه هو ابن إبراهيم بن الأغلب، قلّده الخليفة العبّاسي المأمون الملك سنة 201هـ وتوفّي في منتصف سنة 223هـ، وبقي في الحكم أكثر من 20 سنة، وقد كلف والده إبراهيم بتكوينه العلمي والأدبي فإذا قدم عليه أحد من الأعراب والعلماء بالعربيّة والشّعراء أصحبهم زيادة اللّه وأمرهم بملازمته.

يذكر ابن الأبار في كتابه «**الحلّة السّيراء**» أن زيادة اللّه

كان أفصح أهل بيته لسانا وأكثرهم بيانا، وكان يعرب كلامه ولا يلحن دون تشادق ولا تقعّر، ويصوغ الشعّر الجيّد»[1].

ويعلمنا لسان الدين بن الخطيب في كتابه «**أعمال الأعلام**» أن إبراهيم بن الأغلب «كان يختار لابنه زيادة اللّه العلماء بالعربيّة ورواة الشعر فجاء أفصح أهل بيته لسانا، وأكثرهم أدبا، وكان يعرب كلامه من غير تقعير»[2].

وقد اتّصفت ولاية زيادة اللّه بكثرة الحروب والفتن، وحوصر في القيروان وفي عهده ثار منصور الطّنبذي وملك تونس والقيروان وحاصر زيادة اللّه في العباسيّة أربعين يوما، وانهزم منصور في النهاية وقتل بجربة.

وقد تمّ في عهد زيادة اللّه فتح صقليّة سنة 219هـ بقيادة القاضي الفقيه أسد بن الفرات وكان زيادة اللّه يقول : ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان وبنياني قنطرة أبي الربيع (وهي القنطرة التي كانت على واد زرود) وبنياني حصن مدينة سوسة وتوليتي أحمد بن أبي محرز قاضي إفريقية»[3] وقد بنى زيادة اللّه جامع القيروان بالصّخر والآجر، وزيّنه بالرّخام بعد أن هدّم الأصل، وشيّد المحراب كلّه بالرّخام من أسفله إلى علاه[4].

(1) الحلّة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، مصر 1985، ج 1، ص 163.
(2) أعمال الأعلام : ص 16 من القسم الثالث.
(3) انظر ابن عذاري : البيان المغرب، ص 137 ـ 138.
(4) ابن الآبار : الحلّة السيّراء، ج 1، ص 163.

وهو الذي ولّى أوّل قاض حنفي كان يقول بالاعتزال اسمه أبو محرز محمد بن عبد اللّه الكناني[1].

وقد لبّى زيادة اللّه في القيروان دعوة المأمون لتطبيق مذهب الاعتزال، وأجرى كثيرا من المجالس العلميّة التي يناقش فيها مبدأ التوحيد، وموضوع صفات اللّه وأسمائه الحسنى، وكانت تشتدّ في هذه المجالس المناظرات العلميّة وقد أورد منها نماذج المالكي في «**رياض النفوس**» وأظهر المأمون القول بخلق القرآن منذ سنة 212هـ ثمّ فرضه ابتداء من سنة 218هـ وأرسل برسائله إلى الولاة يأمرهم بامتحان علماء السنّة، ووجّه إليهم رسالة ضمّنها انتقاده إيّاهم[2].

ولزيادة اللّه الأغلبي غزل رقيق في فتاة مليحة صدّت عنه دلالا وتغنّجا مما زاده عذابا وحبّاً لها، يقول مترجيّا عطفها، وهو الملك الهمام الذي دانت له كل إفريقيّة :

بالله لا تَقْطَعَنْ بالهَجْرِ أنْفَاسِي
فأنْتَ تَمَلِكِ إنطاقي وإخراسِي
صدودُ طَرَفِكَ عنْ طَرْفِي إذا التقيا
مُجَرِّعي كأس إرغام وإتعاس

(1) طبقات علماء افريقيّة : ص 84.
(2) انظر كتابنا : تاريخ القيروان الثّقافي والحضاري، تونس 2001، فصل انتشار مذهب الاعتزال بالقيروان في العهد الأغلبي وكتابين : أعلام من المغرب والمشرق، تونس 2006، فصل المأمون وأرسطو وحركة الاعتزال.

لو لم أبحكَ حمى قلبي تَرُودُ به
لم تَستَبِحْ مُهْجَتي يا أملحَ الناسِ

فقد تفنّن زيادة اللّه في غرض الغزل فهو لا يستهتر في حبّه وكأنّ لسان حاله يقول ما قاله هارون الرّشيد في عدد من جواريه:

ملك الثلاثُ الآنساتُ عِناني
وحلَلن من قلْبي بكلّ مكانِ
مَالي تُطاوِعنِي البريّة كلُّها
وأطِيعُهُنَّ وهُنَّ في عِصْيانِي
مَاذاكَ إلاّ أنَّ سلْطانَ الهوَى
وبه عَزَزْنَ أعزُّ من سلطاني[1]

* * *

ومن أغراض شعر الملوك والأمراء غرض الافتخار بالنّسب والحسب والمجد والحلم وغير ذلك من الخصال الحميدة، لكنّنا نجد أبياتا ثلاثة وجّهها زيادة اللّه إلى الخليفة المأمون يصف فيها نفسه بالقوّة والبطش والشجاعة والجرأة قالها حين دعاه المأمون إلى أن يكون تابعا لوالي مصر، بعد أن أحرز والده إبراهيم الاستقلال بولاية إفريقية. وقد أغضى الخليفة عنه لأن بني الأغلب كفوه ثورات البربر المتواليّة خاصة من الخوارج الصفريّة

---

(1) انظر كتابنا : الخلفاء والأمراء العشاق، تونس 2004، ص 27 وكتابنا : الجواري المغنيات، تونس 1997، ص 45.

والإباضية بالغرب الإسلامي وثورات الجنود والعرب، إضافة إلى أن بني الأغلب يدينون بالولاء للخلافة العباسيّة :

أنَا النَّارُ في أحْجَارِهَا مستكنَّةٌ
فإن كُنْتَ ممَّنْ يقدَحُ النَّار فاقدحِ
أنَا اللَّيْثُ يَحْمِي غيلَه بزئيره
فإن كنت كلْباً حان موتُك فانبح
أنَا البَحْرُ في أمواجه وعُبابه
فإن كنت ممّن يسبح البحر فاسبح

وتشير هذه الأبيات إلى ما بلغه البيت الأغلبي من مجد وسطوة، فزيادة اللّه يشبّه نفسه بالنّار المتأجّجة، والأسد الغيور، والبحر المائج الهائج.

وخاطب مرّة أمّه جلاجل حين أخذت تصبّره وتسهّل عليه أخذ بعض المواقف وتشجّعه، قال مفتخرا بنفسه وأتباعه ومناصريه :

يا وَيْحَ نفسي حين أركَبُ غاديا
بالقيروان تَخَالُنِي مُختَالاَ
في فِتْيَةٍ مِثْلِ النُّجُوم طوَالِعٍ
وتخالُني بين النجوم هلالا

ولئن لم يبق من شعر زيادة اللّه الأغلبي إلا القليل، فإنّ هذه الأبيات عينّات من طلاوة هذا الشّعر، وامتلاك زيادة اللّه لناصية القريض، فجاءت الصوّر معبرّة عن حال الشّاعر سواء

في غزله أو افتخاره. وينزع في شعره نزعة «شعراء البادية في تودّدهم الصادق إلى المرأة، وشعراء الحواضر في استدراجهم المحبوب، واستجدائه بالاستعطاف والاستلطاف وبتكلّف الشّجن والحزن والوجد والبكاء»[1].

* * *

كان زيادة اللّه الأغلبي من أنبغ شعراء افريقيّة في الفخر والغزل وأدب الحماسة حتى أن الخليفة المأمون كان يتمثّل بشعره مثلما ذكره المسعودي في كتاب «**مروج الذهب**»، كان المأمون يقول :

أنا النّار في أحجارها مستكنّة
متى ما يهجْها قادحٌ تتضرّمِ[2]

ويقول لسان الدّين بن الخطيب في كتابه «**أعمال الأعلام**» : «كان زيادة اللّه مع محلّه من الفهم والمعرفة أبيّا حازما»[1].

ولزيادة اللّه الأغلبي في وصف تفاحة :

ولابسة ثوبَ اصفرار بلا جسمِ
تنمُّ بأنفاس الحبيب لمشتمّ
تجمّع معشوقٌ لديها وعاشقٌ
فذو نظر يرنو إليها وذو شمّ

---

(1) انظر : محمد المختار العبيدي : الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة، ص 80.
(2) ابن الأبار : الحلة السيّراء : ج 1، ص 166.
(3) ابن الخطيب : القسم الثالث : ص 17.

سأفْنيكِ أو أفْنَى عليكِ تذكّرا
لمن أنتِ عطرٌ منه في الرّشف واللثّم
فقد هجتِ في قلبي لظًى لتذكّري
وعنوانُه في مقلتي دمعةٌ تَهْمِي
كأنّيَ أُدْنِي حين أدنيكِ من به
أثرتِ اشتياقي في عناقٍ وفي ضمّ

وهذه الأبيات من أروع ما قيل في وصف تفّاحة، رسم فيها زيادة اللّه لونها ورائحتها وجمالها ممّا جعل بعض مجالسيه يتمتّعون بالنّظر إليها، وآخرين بشمّها، وقد ذكّره حسنها بحسن حبيبته، ويتّسم هذا الرسم بموافقات أدبيّة جميلة، فهو يتلذّذ بالتّفاح بجميع حواسه، وتثير هذه التّفاحة في نفسه ذكريات يترقّق لها قلبه، فيسيل دمعه، فيبثّ شكواه في أبيات تحفل بكلمات العشق والاشتياق والضمّ والعناق، والحضارون في هذا المجلس الأدبي كأنّهم في مجلس عشق للتّفاح، فهم بين عاشق ومعشوق، وبين مشتاق ومشتاق إليه، ويتغلّب الطابع الحسّيّ في هذه القطعة الشعريّة التي تتحلّى بما توحيه من متع مادية، فقد شخّص التّفاحة وجعلها بمثابة الحسناء التي تشدّ عاشقيها إليها، فزيادة اللّه الأغلبيّ يمتلك جميع الأدوات الفنّيّة في التّصوير والرسم، ومعلوم أنّ من الثّوابت في الشعر العربي القديم تشبيه خدّي الحبيبة بالتّفاح كما في هذا البيت :

ماءُ النَّعيمِ على ديباج وَجْنَتِها
يجُولُ بَيْنَ جنى وَرْدٍ وتُفَّاحِ

لكنّ زيادة اللّه جعل التّفاح عطرا مشتقّا من عطر الحبيب، وكأنّ الملك الشاعر يشير في هذه الأبيات إلى من سمّاها أملح الناس، والتي خاطبها في الأبيات المؤثّرة التي ذكرناها أعلاه، والتي يبتهل فيها إليها أن لا تقابله بالهجر، وإغضاء الطّرف عنه، وأن لا تواصل تعذيبه بالابتعاد عنه وعدم الوصال. ويصوّر زيادة اللّه حاله مع «أملح الناس»، وهي حال من يتجرّع كأس التّعاسة والشقاء، وأبيح قلبه للألم.

أبو عقال الأغلب بن إبراهيم

هو أخو زيادة اللّه، تولّى الحكم بعد وفاته سنة 213هـ، وتوفي سنة 226هـ. ودام حكمه 13 سنة، واستتمّ في هذه المدّة فتح صقليّة.

ويذكر ابن الآبار في «**الحلّة السّيراء**» أن آثار أبي عقال صالحة، وأنّه قد أمّن الجند وأحسن إليهم فلم يكن في أيّامه على قصرها وتقلّصها حروب. وقد حمدت سيرته، وظهرت فضيلته، وانتشر عدله، وكان له حظّ من الأدب يصوغ به مقطّعات من الشّعر[1]. ويورد ابن الآبار هذه الأبيات الغزليّة الثّلاثة التي يصف فيها أبو عقال الأغلب تأثير عينين في نفسه ويشبّه تأثيرهما بتأثير الصهباء» :

قال أبو عقال يتغزّل بعينين جميلتين :

لَهُ مُقْلَةٌ تَكْفِيهِ حَمْلَ سِلاَحِهِ
مُحَارِبَــةٌ أَلْحَاظُهَا مَنْ تُسَالِمُهْ

---

(1) الحلّة السيراء : ج 1، ص 168 ـ 169.

سقَى صبَّه منْ خَمْرِها فبدا بها
كَمَا تَفْعَلُ الصَّهْبَاءُ ما هُوَ كاتِمهْ
وقد سَكَرَتْ أجْفَانُه فكأنَّما
تُسَقِّيهِ منْ صَهْبَائها وتُنَادِمُهْ

هكذا يتحدّث أبو عقال عن عينين حبيبتين، ويتوجّه وجهة الشّعراء التقليديين في تصوير نظرة الحبيب وبيان فتنته.

ويؤرّخ لسان الدين بن الخطيب في «**أعمال الأعلام**» للملك الشاعر أبي عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب فيصف أيّامه بأنّها كانت «هادئة بخلاف أيّام أخيه لاستمالة نفوس الجند إليه بكثرة الإحسان والتّودّد إلى النّاس بإسقاط كثير من المحدثات التي يتزيّد فيها العمال، وأجرى على عماله الأرزاق الواسعة فقبض أيديهم بها عن النّاس، وكانت أيّامه قصيرة، توفّي لسبع بقين من ربيع الآخر سنة 226، وهو ابن 53 سنة» (ص 20).

أبو العبّاس محمد بن الأغلب

هو ملك شاعر من الدّولة الأغلبيّة، له قصيدة في الفخر من أروع القصائد الفخريّة التي نطقت بها ألسنة الملوك، هو أبو العبّاس محمد بن الأغلب من ملوك الدّولة الأغلبيّة والشّعراء الفحول، تولّى الملك سنة 226هـ إثر وفاة والده أبي عقال، وتوفّي سنة 242هـ .كان من ملوك إفريقيّة العظام، ففي عهده وصل الجيش الأغلبي إلى رومة، ودخلها، وبقي فيها حوالي شهرين، وبنى أبو العبّاس على ضفة نهر «التّيبر» حصنا مازال مشاهدا إلى اليوم حسب ما أورده المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في كتابه «**خلاصة تاريخ تونس**».

وحكم أبو العباس محمد بن الأغلب إلى سنة 242هـ. ودام عهده حوالي ستّ عشرة سنة. وكان أبو العبّاس شاعرا فحلا، قد زادت في عهده الدّولة الأغلبيّة قوّة ومجدا وتأثيرا علميا وهو الذي ولّى الإمام سحنون القضاء.

* * *

بقيت لأبي العبّاس قصيدة واحدة يفتخر فيها بآبائه وملوك

الدّولة الأغلبيّة الذين سبقوه، ويعتز بالمجد الأغلبي الأثيل وبنسب الأغالبة المنيف، يقول متسائلا تساؤل المتجاهل العارف :

أليسَ أبي وجَدِّي أوطآني

وجدُّ أبي وعمّايَ الرّقابا؟

ولئن يتباهى أبو العبّاس بهذا النسب وبفضل آبائه وأياديهم البيضاء على إفريقية فإنّه يفتخر بأنّه صفوتهم وأنّه كما يقول «المصاصة واللبّابا»، وأنّه أعزّ من وطئ الأرض :

إِذا نَقَّبْتَ عن كرمي ومَجْدِي

وَجَدْتني المصاصة واللبّابا

ويقول قبل ذلك مغرقا في الغلوّ والمبالغة المفرط فيها :

ورِثْتُ المُلْكَ والسلطان عنهم

فَصِرْتُ أعزّ منْ وطئ التُّرابا

ويفتخر بمعاني الفخر التّقليديّة، فهو يتغنّى بسمو النّفس والكرم والمجد والشّجاعة والبطش بالأعداء وصيانة العشيرة واصطناع الرجال واصطفائهم فيقول :

أنا الملك الذي أسمو بنفسي

فأبْلُغُ بالسموّ بها السّحابا

إذا نقّبتَ عن كرمي ومجدي

وَجَدْتَنِي المُصَاصَةَ واللبّابا

أنا الملِكُ الذي أيدّْتُ مُلْكِي

بسيفي إذ كشفْتُ به الضّبابا

فأمْضي إن سردْتُ الجفْنَ عنْه

فأغتصبُ النفوس به اغتصابا

إلى أن يقول :

أظلُّ عشيرتي بجناح عزّي

وأمنْحها الكرامة والثّوابا

وأصطنعُ الرّجال وأصْطفيهم

وأغفر للمسيء إذا أنابا

وتدلّ هذه الأبيات على عظمة الملك الأغلبيّ، وما ساد في عهد هذا السلطان من أمن وأمان، ويتغنّى الشاعر أيضا بخلو شخصه من العيوب، وتحلّيه بالعدل وبناء المكارم الباذخة :

لعمْرُ أبيكَ ما أن عبْتُ قومي

وما أخْشَى بقَوْمِي أن أعابا

بنَيْتُ لهُم مكَارِمَ باقِيات

إذا ما صارَتِ الدُّنْيا خرَابا

ولعلّ هذه القصيدة الطويلة وهي في ستّة عشر بيتا من أبلغ القصائد في موضوع الفخر في الأدب العربيّ وأسلسها أسلوبا وهذا نصها :

أليس أبي وجدّي أوطآني

وجدُّ أبي وعمّاي الرِّقابا

ورِثْتُ الملْك والسُّلْطان عنهم

فصرْتُ أعزَّ منْ وطِئ التُّرابا

وقدَّمني الخلائِف واصْطفوْني
فمن مثلي قديما وانتسابا؟
أنا الملكُ الذي أسمو بنفْسي
فابلغ بالسُّموّ بها السَّحابا
إذا نقّبتَ عن كرمي ومجدي
وَجدْتَنِي المُصاصةَ واللُّبَابَا
أنا الملكِ الذي أيَّدْتُ مُلْكِي
بِسَيْفي إذْ كَشَفْتُ به الضَّبابا
فأمضي إِذْ سَرَدْتُ الجفْنَ عَنْه
فَاَغْتَصِبُ النفُّوسَ به اغتصابا
لقد فتح المُهَيْمن لي بسَيْفي
وإقدامي إذا ما الجمعُ هَابَا
أنمتُ به ابْن حمزةَ حين دبّت
عقارب غدره وسعى فخابا
أسلْت به دَمَ الأوداجِ منْه
فصار لشيْبِ لِحيته خِضابا
أظِلُّ عشيرتي بجناح عزّي
وأمْنَحُها الكرامة والثَّوابا
وأصْطنِع الرَّجال وأصْطفِيهم
وأغْفِر للمُسيء إذا أنابا

وأسْمُو بالخميس إلى الأعادي
فأكسِرُ بالعُقَاب لها العِقابا
أنا ابنُ الحَرْب رَبَّتْنِي وليداً
إلى أن صِرْتُ مُمْتلئا شبابا
لعمر أبيك ما أن عِبْتَ قومي
وما أخشى بقومي أنْ أعابا
بَنَيْتُ لهم مكارم باقياتٍ
إذا ما صارت الدُّنْيا خَرابا

إبراهيم بن أحمد بن الأغلب

هو الأمير إبراهيم بن أبي إبراهيم بن أحمد بن الأغلب المتوفّى سنة 289هـ يقول متباهياً بأسرته الأغلبيّة ونسبه التميمي :

نحنُ النّجومُ بنو النّجوم وجَدُّنا
قَمَرُ السّماءِ أبو النجوم تميمُ
والشمسُ جدّتُنا فمن ذا مثلُنَا
متواصـــلان : كريمـــةٌ وكريـــمُ؟

في هذين البيتين مبالغة إذ يعتبر الملك الشّاعر الأسرة الأغلبيّة سليلة للشمس والقمر في العلوّ والرّفعة. أمّا الملوك الأغالبة فهم عنده نجوم السّماء يشعّون وينيرون الدّنيا بأعمالهم العمرانيّة والثقافيّة والأدبيّة.

كما يرسم هذان البيتان ما وصل إليه الملوك الأغالبة من مجد أثيل كان له إشعاع عظيم إلى اليوم حتّى لقبّت القيروان بعاصمة الأغالبة، رغم أنّها كانت أيضا عاصمة للفاطميين والصّنهاجيين من بعدهم.

وهذا المجد الأغلبي وأعمال الأغالبة العمرانيّة والعلميّة والأدبية والثقافيّة هو مما صيرّ القيروان بمرور الزمن من أمّهات بلاد إفريقيّة، «برّزت عليها في العمران والمدنية. بحيث لم يضاهها أيّ بلدة كانت من بلادها، فاجتمع فيها من فضلاء العلماء وصلحاء الأولياء والفقهاء والأطبّاء والكتّاب ومفلقي الشّعراء والمهندسين والمنجّمين من الوهاد والنّجاد وانضووا إليها من سائر البلاد ما جعلها مدينة الإسلام بالغرب، وبما أن (القيروان) كانت واسطة بين المشرق والمغرب عرّج عليها أو خيّم بها كثير من المجتازين والطّلبة الرّاحلين، وأثاروا في نفوس أهلها غراما للعلم كامنا وولعا لاكتساب الفضائل ضامنا»[1].

* * *

هكذا يحتلّ غرض الفخر مكانة مهمّة في شعر الملوك والأمراء الشّعراء بالقيروان، ولم يكن هؤلاء يتخلّفون عن تدبيج أبيات بل قصائد عصماء في هذا المعنى، فهم إلى جانب تضلّعهم من اللّغة والأدب وفنّ القريض يتبجحون بالخصال الحميدة وصفات الشجاعة والكرم.

ولإبراهيم بن أبي إبراهيم أحمد مأثرة بناء رقادة على بعد ستة أميال من القيروان وانتقل إليها من العبّاسيّة وأجرى إليها

(1) عبد العزيز الميمني السّلفي الراجكوتي : ابن رشيق القيرواني، المطبعة السلفية، القاهرة 1343، ص 25.

المياه، واغترس فيها صنوف الثّمار الطيبة والريّاحين، وبنى على القصور التي أحدثها سورا، ويسمى أحد هذه القصور بغداد، وآخرا منها يسمّى المختار، فصارت أكبر من القيروان، كما بنى فيها جامعا وأسواقا وفنادق. يقول الإدريسي عن قصور رقادة : «قصور رقادة الشاهقة الذرى، الحسنة البناء، الكثيرة البساتين والثمار، وبها كانت الأغالبة تربع في أيام دولتها وزمان بهجتها».

ويروى عن سبب تسمية هذه المدينة برقادة أن إبراهيم بن أبي إبراهيم أحمد بن الأغلب أرق وشرد عنه النوم أياما فعالجه الطبيب اسحاق فلم ينم فأمر بالخروج والمشي، فلمّا وصل إلى موضع رقادة نام فسمّيت من يومئذ رقادة.

يقول ابن الآبار في «**الحلّة السيّراء**» : «لم يل افريقية قبله أطول عمرا منه في سلطانها، ملك تسعا وعشرين سنة إلا خمسة أشهر وثمانية عشر يوما» (ج 1، ص 172).

وجاء في كتاب «**المسالك والممالك**» للبكري أنّه «هو الذي بنى مدينة رقادة واتخذها وطنا، وانتقل إليها من مدينة القصر القديم وبنى بها قصورا عجيبة وجامعا، ولم تزل بعد ذلك دار ملك لبني الأغلب إلى أن هرب عنها زيادة اللّه أمام أبي عبد اللّه الشيعي وسكنها عبيد اللّه المهدي إلى أن انتقل إلى المهدية»[1].

(1) الحلّة السيراء : ج 1، ص 172.

وقد أصيب هذا السلطان في آخر عهده بالجنون وأتى بأعمال ذكرتها كتب التّاريخ والأدب كما أنه ولع بالجواري، وكان يمدحه الشعراء خاصة بكر بن حماد التاهرتي. ويفيدنا الرّقيق القيرواني أنه كان يصطبح مع الجواري ولا يصل إليه أحد[1].

ويذكر حسن حسني عبد الوهاب في «ورقات» (ج 1، ص 193) أن ابراهيم بن أبي إبراهيم هو الذي أسّس بيت الحكمة و«كان مولعا ايما ولوع بالعلوم الرياضيّة والحكمة، وأن اشتغاله بالفلسفة وما يتبعها من الفنون حمله على إنشاء هذه الدار، وقد وجّه عناية كاملة إلى جلب علماء مختصّين من كتّاب ماهرين وأطبّاء ومهندسين ومغنيين من الممالك الشرقيّة أي من العراق والشام ومصر».

ويعتبر حسن حسني عبد الوهاب في هذه الدراسة أن عصر إبراهيم الثاني «هو العصر الذي نضجت فيه العلوم واكتست بالهندام العربي.. كما نهضت فيه العلوم بأنواعها وأصنافها إلى الأوج العالي الذي ميزّها به الطابع العربي عن غيرها من الحضارات الأخرى»[2].

وكان إبراهيم يكلّف بعثات إلى بغداد لاقتناء الذخائر والنفائس، وكان حريصا على استجلاب علماء أخصائيين في

(1) نفسه : ص 173.
(2) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التّونسية، مكتبة المنار، تونس 1964، ج 1، ص 193.

عدد من العلوم من العراق ومن مصر، وعلى توريد نسخ من الكتب العلميّة خاصة مؤلفات الحكمة في مواضيع الفلك والتنجيم[1].

وكان إبراهيم يحسن اللّغة اللاتينيّة، إذ كان أقام بصقليّة، يقول عنه حسن حسني عبد الوهاب «إنّه أمير عالم ذكيّ ألمعيّ تعلّقت همّته بترجمة بعض المؤلفات اللاّتينيّة. (...) والظن الغالب البالغ درجة اليقين أن الأمير إبراهيم الثاني تخيّر بعض المصنّفات اللاّتينيّة في العلوم الرياضية التي اطّلع عليها، وكلّف بترجمتها بعض الرهبان الصقلييّن المتكلّمين باللّغة العربيّة، وألحق بهم بعض علماء اللّغة من الإفريقيين، وعهد إليهم مهمّة تنقيح عباراتهم وسبكها في قالب عربي فصيح رغبة منه في تعميم فائدتها ونشرها بين الناس»[2] (ص 202).

وقد دعم جسن حسني عبد الوهاب هذا الرّأي بحجج ثابتة وأدلة قائمة ووثائق أجال عليها، ونوّه أخيرا بالجهود الجبارة والمساعي المتتابعة التي بذلتها الأسرة الأغلبيّة طوال مدّتها بعزيمة صادقة، وإخلاص نادر لتكوين دولة عربيّة شامخة ذات شوكة قويّة ونظم إداريّة متينة في أصولها وفروعها ولا سيما تفردها بأسطول عتيد لم ير العالم الإسلامي مثيله في البحر المتوسّط[3].

---

(1) نفسه : ص 196.
(2) نفسه، ص 201 ـ 202.
(3) نفسه، ص 204 ـ 205.

ورغم أن إبراهيم الثاني الأغلبي كان مهوسا ومصابا في آخر حياته بداء المالنخوليا حسب بعض المؤرّخين فان حسن حسني عبد الوهاب قد كال له من المدح والتنويه خاصة في أوّل عهده واعتبر أنه «كان في أوّل حاله شديد الطلب مولعا بمصاحبة العلماء الأجلاء، يميل بغريزته إلى العلوم الرياضية ولا سيما إلى الفلك منها مع اتقانه لعلوم الدين واللّغة والأدب، وينشد الشعر الرقيق وكان ذا شجاعة نادرة وإقدام عجيب»[1]، وكان استقبل في رقادة سفارات من ملوك الإفرنج الأروبيين ومن قياصرة القسطنطينية ومن ملوك السودان في أبّهة عجيبة، وعلا صيته في ممالك البحر المتوسط، قال عنه ابن الأثير في كتاب «**الكامل في التاريخ**» : «كان إبراهيم عادلا، حازما في أموره، أمّن البلاد وشرّد أهل البغي والفساد، وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والإثنين، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم، وينصف بينهم (...) وكان إبراهيم عاقلا، حسن السّيرة، محبّاً للخير والإحسان، تصدّق بجميع ما يملك، وأوقف أملاكه جميعها على أوجه البرّ، وكانت له فطنة عجيبة في إظهار خفايا القضايا».

(1) نفسه، ج 1، ص 222.

الأمير غلبون

هو شاعر أصيل من شعراء الدولة الأغلبية، اشتهر بنظم القصائد العصماء، في جزالة وشدة أسر ونصاعة ديباجة، هو الأمير أبو عقال غلبون بن الحسن بن غلبون. توفي بالحرم المكّي سنة 291هـ، ولد برقادة ونشأ بها، وتربى في بيت الأمراء الأغالبة في رفاهيّة عظيمة، وتلقى العلم على أيدي علماء القيروان وأدبائها، وكانت العلوم والآداب مزدهرة بها أيما ازدهار، من أساتذته نذكر خاصة الإمام سحنون وأسد بن الفرات.

يمكن أن نميّز مرحلتين في حياة غلبون، الأولى تتمثّل في فترة التكوّن والتّفقه في الشريعة الإسلاميّة واللّغة العربيّة والأدب وهي فترة الشباب، وتتميّز هذه الفترة خاصة بالتّهتّك والمجون وتعاطي حياة تتّسم باللّهو وجني ثمار المسرّات. وقد ساعده المحيط الحضاري بالقيروان لعقد مجالس الأنس والطّرب والغناء والشّعر، كما أن مكانته بالبيت الأغلبي كأمير قد مكنته من سلوك لا يراعي أيّ حد للتصابي، وإنّ الأشعار التي بقيت لنا منه تدلّ على تضلعه من أوزان الخليل بن أحمد، وتفوّقه في صياغة شعر عالي النسيج، مشرق الدّيباجة. أمّا

الفترة الثانية من حياة الأمير غلبون فتتميز بلجوئه إلى حياة سلك فيها مسلك الزّهد، والتّخلّي عن المسرات، ومتع الدنيا، وقد تاب عن حياته الماضية كما عبّر عنها في أشعاره العديدة التي ضمنّها ابتهالات إلى اللّه تعالى طالبا منه العفو والغفران على ما أتى من ذنوب ومعاص، يقول :

إنَّ الزَّمَانَ عدَاَ علَيَّ فزادَنيِ
علِمْا بأنَّكَ خَالِقِي تَحقْيِقا
ما نالني يوم بوَجْهٍ مَسَاءةً
إلاَّ عَبَرْتُ بِهِ إليكَ طريقا
حَسْبِي بأنَّكَ عَالم بمصالحي
إذ كنْتَ مأمُونا عليَّ شفَيقا

وقد تخلّى غلبون الأغلبي عن أهله وأسرته وأحبابه وأولاده وهاجر القيروان قاصدا بلاد الحرمين الشريفين، وقد حدّثنا عن نفسه شعرا فقال :

أبْصرَ بِالقلب سبيلَ الرَّشَدْ
فباين الأهل معاً والولَدْ
وجَدَّ في السَّيْرِ إلى ربّه
مشمِّراً يطلب مُلْكَ الأبد
قد صارتِ الدُّنيا بأقطارها
عليهِ كالسِّجن فمَنها شرد

* * *

وقد عبّر الأمير غلبون الأغلبي في هذه الأبيات عن توبته النصوح وقراره الحاسم بالتّخلّي عن حياته الماجنة الماضية وتوخّيه حياة جديدة قوامها الصّلاح والتعبّد والتهجّد والفلاح، يقول ذاكرا عصابة المجان، وهي تذكرنا بعصابة السوء التي كانت يتزعمها أبو نواس[1] :

فلئن مضى صَدْرُ الزمانِ بصفْوه
فَلأخْدمَنَّ لسيِّدي المنّانِ
ولأقْطَعَنَّ علائقي منْ غيره
حتَّى أحُلَّ بساحة الميدان
ولأنْفِيَنّ مَطَامعِي ومَلابسي
ولأمْنَعَنَّ منَ الكلامِ لساني
ولأهْجُرَنَّ أحِبَّتِي ومَعارِفي
ولأقْطَعَنَّ عِصَابةَ المُجّانِ
ولأبكينَّ على الصّبا ولِمَا مضى
من غرّتِي في سالف الأزمان
فلعلّ من شمل العباد بفضله
يُحيي الفؤاد بكثرة الأشجان

هكذا اعترف غلبون بأنّه كان محاطا بعصابة سمّاها بعصابة المجّان مثلما سمّى أبو نواس عصابته بعصابة

---

(1) عن هذه العصابة، انظر كتابنا : شعراء الغزل والخمريات، تونس 2003.

السوء. ولقد تزهّد غلبون على غرار تزهّد أبي العتاهية حينما قرّر ذات يوم كسر آلات ملاهيه فنزع ثيابه واغتسل ثم لبس ثيابا بيضاء من صوف، ثم عانق أحبابه وودّعهم الوداع الأخير قائلا لأحد ملازميه من المغنين، والدموع الغزيرة تنهمر من عينيه :

- السّلام عليك يا حبيبي وفرحي من النّاس كلّهم سلام الفراق الذي لا لقاء لغده.

وحين جاءه مخارق المغنّي ذات يوم طالبا منه أن يغنيه، جابهه بالرّفض وأرسل إليه رسولا يقول له :

- إن دخلت إلي جدّدت لي حزنا، وتاقت نفسي من سماعك إلى ما قد غلبتها عليه، وأنا أستودعك اللّه وأعتذر إليك من ترك الالتقاء.

هكذا جابه أبو العتاهية المغنّي بالرفض التّام والإعلان عن تخلّيه المطلق عن حياة اللّهو والصخب والمجون.

وكان غلبون على هذه الشاكلة، روى محمد بن الكاتب قال: كنا نشرب عند أبي عقال بن غلبون في داره، فلما كان بعد العصر خرج عنا من المجلس وقال لغلامه : امض فاشر لي جبة من صوف وعباءة وكساء ومئزرا من صوف، فحسب الغلام أنه يريد أن يكسوها لأحد، فأتى بها إليه فنزع ثيابه تلك الناعمة النظاف ودخل إلى والدته بأثواب الصوف، فقالت له : ما هذا يا أبا عقال؟ أخولطت في عقلك يا بني؟

فقال لها : يا أماه، واللّه لاعصيته بعد هذا اليوم أبدا، وانصرف كل واحد منا، وكذا كان رجوعه إلى الله، وباع ما كان من دور وعقار وتصدّق به وخرج إلى مكة المكرّمة ولازمها إلى أن مات[1].

هكذا أصرّ أبو عقال غلبون على عدم الرّجوع إلى حياته الماضية، واتّجه إلى الله تعالى متوسلا إليه يقول :

يا مَن إليهِ حُسْنُ ظني قَادَنِي
أنت المؤمّل عند كلّ أوان
فامنُنْ عليَّ بما أؤمِّل منْك يا
معْطِي الجميلَ ومُسْدِيَ الإحسانِ

* * *

لقد تخلّى الأمير غلبون عن أحبّائه وحبيباته اللّواتي كان يتعشّقهن، تركهم في شوق لافح ومضى يتهجّد ويتعبّد بعيدا عن القيروان. ومما يروى عنه من النوادر أنه كان يحضر الأعراس متنكّرا في زيّ امرأة، وذات مرّة فقدت إحدى النّساء درّة غالية الثّمن، فأغلقت صاحبة الدّار باب المحلّ لتفتّش الحاضرات، وأخذ غلبون الهلع، وخاف من الفضيحة النكراء، ومرّت جميع النسوة على التّفتيش والفحص، ولم تبق إلا امرأة واحدة وغلبون المتنكّر، وسرعان ما وجدت الدرّة عند هذه

---

(1) محمد البهلي النيال : الحقيقة التّاريخيّة للتصوف الإسلامي، نشر وتوزيع مكتبة النجاح، تونس 1965، ص 151.

المرأة، فخرج غلبون وهو خجول من نفسه وقرّر أن لن يحضر أعراس النّساء بهذه الصورة وتاب عن هذا الأمر.

* * *

وقد أشار غلبون في قصيدة وجدانية إلى حياته التي قضاها في القصف والترف ومجالسة النساء، واصفا أطوارها المليئة بالتجارب والمغامرات الماجنة في البرّ والبحر، والمتع الدّنيوية المختلفة يصفها في هذه الأبيات:

بلوتُ الزمانَ ودُسْتُ البلادَ
ونافسْتُ في كلّ شيء عِناداً
شربت المُدَامَ وسُسْتُ القيان
ورُضْتُ الجياد ورُعْتُ الشِّدَادا
أصيدُ الغزال وأمَّ الرّئال[1]
بِطِرْفٍ[2] أراه يُجيد الطّرادا
وصعلَكْتُ في البرّ والبحر دَهْراً
أخلّف أهلِي عليَّ حِدَادا
أسُومُ البِعَاد وأهوى اللّذاذ
وأظهرُ في الأرض منِّي الفسادا
أرُوحُ علَى ذا وهذا وذاك
أدِيمُ السُّهاد وأجْفُو المِهَادا

(1) أم الرئال: أي النعام. والرآل: ولد النعام والأنثى رألة.
(2) الطِّرف: بكسر الطاء، الكريم من الخيل.

يتعلّق هذا الشّعر وغيره بسيرة هذا الأمير بالقيروان ويتطابق مع ما أفادنا به ابن الدباغ عنه في «**معالم الإيمان**» إذ قال : «لم يكن في زمانه أشدّ مجونا منه، وكان مفتونا بالنّساء، وكان ولوعا بحضور الأعراس والمآتم بزي النساء وهو الخفّ والمعجر والرّداء ثم تاب وتزهّد حتى صار من كبار العبّاد والزّهاد».

ويعلّق ابن الدباغ قائلا : «ارتحل إلى المشرق حيث لازم الحرم النّبوي الشريف إلا أنّ حبّ النّساء بقي لم يزايله، إذ كان يقول : زال من قلبي حبّ الدّنيا إلا حبّ النساء».

وكان غلبون يطوف بالبيت الحرام مغطّى العينين خوفا من الفتنة، وتزوّج بمكة المكرّمة بامرأة خراسانية تزهّدت معه لتتزوّجه إذ اشترط عليها ذلك، وقد عشقته فقبلت شرطه.

كان غلبون يسمّى حمامة الحَرَم، وكان يسقى الماء بالمدينة وعليه مرقّعات الصّوف، وعلى ظهره قربة ماء وبيده ركوة. وقد عاهد اللّه أن لا تبيت معه بيضاء ولا حمراء، أي لا يبيت معه درهم ولا دينار.

ولا غرابة أن يتزهد غلبون في بيئة، هي بيئة القيروان في العهد الأغلبي، قد قوي فيها ساعد المدرسة الفقهية المالكية بإمامة سحنون الفقيه صاحب مدونة مالك بن أنس، كانت هذه المدرسة توجه الناس إلى حياة الصلاح والفلاح. وتتدرج زهديات الأمير غلبون وأشعار عدد من معاصريه ذات الصبغة

الدينية كرد فعل لتيار الانغماس في حياة اللّهو والقصف والمجون، وجني ثمار اللّذات الحسية، والانبهار بزخارف الدنيا، والتعلق بمظاهر الحياة المادية.

وتقابل أشعار غلبون الأشعار المنتجة في نفس البيئة والتي تعبر عن الحياة الجديدة في ظل الحضارة بالقيروان التي كانت على صلة وثيقة بالتيارات الحضارية والفكرية والثقافية ببغداد، وكانت القيروان تطمح أن تكون صورة من عاصمة الرشيد.

وإن الأجنة والبساتين التي كانت تحيط بالقيروان أو التي كانت تزدهي بها العباسية ورقادة وصبرة المنصورية فيما بعد وسردانية وجلولا كانت إطارا لحياة تزود الشعراء بطاقة فنية تلون أشعارهم بمسحة جمالية فريدة من نوعها تذكر بالبيئة الأندلسيّة الغابرة، فينشغلون برسم الألوان وتصوير أشكال الأزهار وأصوات الأطيار والنافورات الاصطناعية، فتكثر في إنتاجهم الأدبي التشابيه والاستعارات ومختلف الصور البلاغيّة كالجناس والكناية وغيرهما لذلك نجد نفحة جديدة في الأدب العربي بالقيروان تتمثّل في الأنماط الأدبية والأساليب والأشكال الشعرية.

غلبون وأخته الأميرة مهريّة :

تعدّ أخت غلبون الأميرة مهريّة الأغلبيّة من الشاّعرات

المفلقات والناثرات المعجزات. فقد كتبت إلى أخيها وهو مجاور للحرم المكي تحثه على الرجوع إلى القيروان وتناشده للقدوم لجمع الشمل تقول له وهي شديدة الشوق إلى رؤيته والتّمتع بحديثه :

«بحقّ الثدي الذي رضعته معك إلا أريتني وجهك قبل فراق الدنيا، مالك في حال صباك وجناياتك وكثرة ما يطرأ علينا بسببك كنت عندنا، وحين صرنا نفخر بك ونتبرّك برؤيتك فارقتنا؟».

قال غلبون لرسولها : «قل لها ما كنت لأدع بلدا عرفت اللّه فيه وأمضي إلى بلد عصيت اللّه فيه».

ومن شعر مهريّة الأغلبيّة في رثاء أخيها غلبون وهي تبكيه وتتألم وتصور ما كان عاناه من عسر وغربة في حياته المكية :

ليت شعري ما الذي عانيته
بعد طول الصوّم مع نفي الوسن
معْ نزوح النفس عن أوطانها
والتخلّي عن حبيب وسكن
يا شقيقا ليس في وجدي به
لوعة تمنعني من أن أجَنّ

* * *

كانت مهريّة تصبّر نفسها متمنّية أن ترى أخاها غلبون ذات يوم، ولكن ها هو نعيه يبلغها فتنفرط في البكاء والعويل، وتعبر عن جزعها ولوعتها إلى حد الجنون.

يفيدنا صاحب «**عنوان الأريب**» عن مهريّة بما يلي :

«كانت له (غلبون) أخت فاضلة شاعرة كاتبته بعدة كتب تسأله أن يرجع إلى القيروان قبل أن يفرق الموت بينهما فكان لا يقرأ كتبها خوف أن تحمله الرقة على الرجوع عما هو عليه من المجاورة».

وفي رواية أن مهريّة لم تتمالك أن قدمت إلى مكة حاجة وأقامت معه إلى أن توفّي وهو ساجد سنة 291 ودفن بمكة فكتبت أخته على قبره تلك الأبيات التي ذكرناها أعلاه، ويفيدنا صاحب «**عنوان الأريب**» أيضا أن مهريّة لم تزل مقيمة بمكة ترجو اللّحاق به مجتهدة في العبادة والتبتل إلى أن توفيت ودفنت هناك.

الأمير غلبون
ومولانا جلال الدّين الرّومي[1]

كنا تناولنا في الفصل السابق حياة الأمير أبي عقال غلبون بن الحسن بن غلبون المتوفى سنة 291هـ، والذي كان شديد المجون، ولم يكن في زمانه أشد مجونا منه كما يقول عنه ابن الدباغ في «**معالم الإيمان**»، إذ كان ولوعا بحضور الأعراس والمآتم متنكرا ليختلط بالنساء، ثم تاب إلى الله توبة نصوحا، وارتحل إلى المشرق، ولازم الحرم النبوي الشريف وكان يقول: «زال من قلبي حب الدنيا إلا حب النساء»، وكان يطوف بالبيت الحرام مغطى العينين خوفا من الفتنة. وكم كتبت إليه أخته مهرية الأغلبية أن يعود إلى أرض القيروان فكان يمزق رسائلها قبل أن يقرأها وكانت تقول له : «مالك في حال صباك وجناياتك وكثرة ما يطرأ علينا بسببك، كنت عندنا وحين صرنا نفخر بك ونتبرك برؤيتك فارقتنا؟» فقال

---

(1) انظر كتابنا : مولانا جلال الدّين البلخي الرّومي قطب العشاق وصاحب الطريقة المولوية، تونس 2007.

لرسولها: «قل لها، ما كنت لأدع بلدا عرفت الله فيه وأمضي إلى بلد عصيت اللّه فيه!». وكم كتبت له من أشعار تترجاه أن يعود إلى القيروان لشوقها، ولكنه يأبى الرجوع، ويكتب الأشعار في الزهد والأغراض الدينية.

ولعلّ مولانا جلال الدّين الرّومي قد قرأ قصة هذا الأمير الأغلبي أو سمع بها وتأثر بها واستوحى منها صفحات جميلة، وأبدل اسم الأمير باسم نصوح. يقول في الجزء الخامس من كتابه «مثنوي» بتعريب إبراهيم الدسوقي شتا : «كان هناك فيما مضى رجل يسمى نصوح، تيسّر له الرزق من القيام بتدليك النساء، كان وجهه كوجوه النساء، وكان بالطبع يخفي كونه رجلا، لقد كان دلاكا في حمام النساء، وظل لسنوات يقوم بهذا العمل دون أن يفهم أحد حقيقة هوسه وسرّه، وذلك لأن صوته ووجهه كانا كما يكونان عند النساء لكن شهوته كانت كاملة يقظة، لقد لبس الملاءة والطراحة وتنقب بالنقاب لكنه كان رجلا شهوانيا في شرخ الشباب، وعلى هذا النحو ظل ذلك الشهواني المحب يقوم بتدليك بنات السادة جيدا. كان يتوب مرات وينسحب من هذا العمل لكن النفس الكافرة كانت تمزق توبته».

ونعلم نحن أنّ سبب توبة غلبون أنه تنكر مرة في زي امرأة وفقدت إحدى النساء درة غالية الثمن، فأغلقت صاحبة الدار باب المحل لتفتش الحاضرات، وأخذ غلبون الهلع وخاف

من الفضيحة. ومرت جميع النساء على التفتيش ولم تبق الا امرأة واحدة وغلبون المتنكّر، وسرعان ما وجدت الدرة عند هذه المرأة وخرج غلبون وهو خجول من نفسه وقرر التوبة.

يقول مولانا جلال الدّين الرّومي : «كان يملأ الطست في ذلك الحمام عندما ضاعت جوهرة من بنت الملك، وفقدت جوهرة من قرطها وهو في أذنها وأخذت كل امرأة في البحث والفحص، ثم أحكموا رتاج الحمام لكي يبحثوا في البداية بين طيات الملابس وبحثوا في كل الملابس ولم يجدوها ولم يكتشف سارق الجوهرة. وجدّوا في البحث وكيفما اتفق، أخذوا في البحث في الأفواه والآذان وفي كل ناحية أخذوا يفتشون عن الدرة الغالية الثمينة. وتعالى هتاف بأن يخلعن جميعا ملابسهن كل من كانت عجوزا أو شابة، وأخذت الحاجبة تفتشهن الواحدة بعد الأخرى لتجد الجوهرة الغالية الثمينة.

وانتحى نصوح ركنا من الخوف، شاحب الوجه أزرق الشفة، خشية افتضاح أمره، كان يرى الموت ماثلا أمام عينيه، فأخذ يسير وهو يرتعد كأوراق الصفصاف وقال : «إذا وصلت نوبة البحث إلي، ويلي! أية مصائب سوف تحيق بي! لقد اندلع في كبدي لهيب شديد (...) ليت أمي لم تلدني أو ليت ليثا افترسني في الأجم... فافعل أنت يا إلهي ما أنت أهل له (...)

ولو أنك سترتني هذه المرة لتبت عن كل ما لا ينبغي فعله، فاقبل توبتي هذه المرة أيضا!».

ويواصل جلال الدّين الرّومي قصة المتنكر في وسط النساء والذي كاد أن يكتشف أمره : «هكذا أخذ يتضرع ودموعه تسيل قائلا لنفسه : لقد سقطت في أيدي الشرطة والجلادين (...) وأخذ ينوح على عمره... فأخذ يردد : يا الله، يا الله! ويكررها كثيرا بحيث جارته في دعائه الأبواب والجدران».

ويقول : «من بعد ذلك الخوف الذي كان هالكا للروح، وصلت البشارات صائحة : هاك الذي فقد منك (...) لقد تم العثور على تلك الدرة اليتيمة الضائعة، لقد وجدت وها نحن قد تقلبنا في السرور، بشروا الجميع، فقد وجدنا الجوهرة، ومن الصياح والتهليل والتصفيق امتلأ الحمام، فقد زال الحزن«.

والقصة طويلة تشرح حال التائب، ومن فقراتها الجميلة.

«إنّني أعلم جرائمي وقبح فعالي، كذلك يعلمها ذلك الذي ستر عليّ، لقد كان إبليس أستاذا لي من البداية، ثمّ صار إبليس إلى جواري مجرّد هباء».

وختمت القصّة بقول مولانا جلال الدّين الرّومي :

«من بعد هذه المحنة من الذي يمضي ثانية صوب المحنة، اللّهم إلاّ إذا كان حمارا».

غلبون في كتاب «نفحات الأنس» للجامي

في الفصل السابق أشرنا إلى تأثر مولانا جلال الدّين الرّومي بقصة أبي عقال بن غلبون الأمير الأغلبي الذي هاجر من القيروان إلى مكة وتاب بعد أن قضى حياته في المجون واللهو، وقد خصص له الأديب والعالم الفارسي أبو البركات عبد الرحمان جامي فصلا في كتابه «**نفحات الأنس من حضرات القدس**» الذي ترجم فيه للزهاد والأتقياء وعظماء أهل اليقين والجامعين بين علمي الظاهر والباطن، معتمدا في ذلك على كتاب طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمان محمد بن الحسين السلمي النيسابوري وتعليق أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي.

وعبد الرحمان الجامي ولد سنة 818هـ/1414م في قرية خرجرد من ولاية جام من أعمال هراة التي تقع اليوم بأفغانستان، وتوفي سنة 898هـ/1492م بهراة، أخذ اللّغة والفقه عن والده العالم الفقيه، ثم غادر هراة وسافر في البلدان خاصة دمشق وبغداد وتبريز ومكة والمدينة، وكان يهدف إلى

طلب العلم وملاقاة المشايخ والأساتذة، وتكون وأصبح من أكبر العلماء والأدباء الزهاد في العالم الإسلامي، قال عنه المستشرق بابر : «لم يكن له نظير في زمانه في العلوم العملية والنظرية». وقد ألف العديد من الكتب باللّغتين العربية الفارسية، وتصل إلى 44 مؤلفا، وكان ينظم الشعر ويعتبر من أكابر الأدباء والشعراء والمحدثين والمفسرين، من أقّواله متحدثا عن شبابه : «إني كنت في ذلك الوقت قد زرعت في فؤادي بذور الآمال والأماني وكانت عيناي مشغولتين بالنظر إلى ألوان الجمال التي تفتحت قريبا في ربيع العمر، كما كنت في ذلك الوقت ملازما لأهل الفضل والكمال، فكنت حريصا على حضور مجالس العلم، مواظبا على الانتظام في المدارس، كما كنت أنتقل في تلك الأثناء بين البلدان، تاركا وطني، مفارقا إخواني، بعيدا عن أحبابي وخلاني، كما كنت قد التحقت بخدمة الدراويش ولبست زيهم وقد جهدت أن أصفّي خاطري كما أشاروا علي».

لقد عرّف عبد الرحمان جامي بأبي عقال غلبون الأمير الأغلبي وصفه في كتابه «**نفحات الأنس من حضرات القدس**» إنه كان من مشاهير المشايخ، وأورد من شعره أبياتا أربعة وهي :

عقّدتْ عليك مكمنّاتُ خواطري

عقد الرجاء فألزمتْك حقوقا

إن الزّمان عدا عليّ فزادني
علما بأنّك صاحبي تصديقا
ما نالني يومي بوجه مَساءة
إلا عمدت به إليك طريقا
حسبي بأنك عالم بمصالحي
اذ كنتَ مأمونا عليّ شفيقا

وقد وردت هذه الأبيات باختلاف في مظان أخرى.
وأوردها الجامي في قصة ذكرها على لسان غلبون قال :

«كان معي سبعون ما منهم إلا صاحب ركوة فوقع القحط في مكة فكلهم ماتوا إلّا أنا وستة نفر آخر، ومضى علينا سبعة عشر يوما ما أكلنا شيئا فحصل اليأس من الحياة، فوقع في سري أن أذهب إلى ركن البيت ألزمه وأموت فأردت أن أقوم فما قدرت أن أقوم فذهبت حبوا، وتعلقت بركن البيت، فجاء في خاطري هذه الأبيات، فرجعت الروح إلي... ثم رجعت إلى زمزم، واستندت إليها فجاء عبد أسود، ومعه جدي مشوي، وخبز كثير، وطعام في قصعة وقال : أنت أبو عقال؟ فقلت : نعم. فوضع ذلك الطعام قدامي، فأشرت إلى الأصحاب كلهم، فجاؤوا حبوا، فأكلنا ذلك الطعام».

ويعلمنا الجامي أن أبا عقال ما أكل وما شرب من أربع سنين حتى مات.

ونشير إلى مراجع أخرى عن أبي عقال وهي : «معالم

الإيمان» للدباغ وابن ناجي، وكتاب «رياض النفوس» للمالكي، و«عنوان الأريب» لمحمد النيفر، و«الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة» لمحمد المختار العبيدي.

خلفاء الدّولة الفاطميّة بالقيروان

المهدي بالله

إن خلفاء الدولة العبيدية الفاطمية بالقيروان أربعة : المهدي أبو محمد عبيد اللّه ثمّ ابنه أبو القاسم محمّد القائم ثم ابنه المنصور بالله وأخيرا المعز لدين اللّه أبو تميم، كانوا جميعا من الأدباء والشعراء والعلماء، حفظت لنا كتب التّاريخ والأدب عينّات من أشعارهم وعددا من خطبهم وأحاديثهم العلمية. وتتّصل أشعارهم عموما بمعاني الفخر والحماسة والأدب الوجداني، إذ يصورّ بعضها خلجات نفوسهم ومشاعرهم في خضم بعض المواقف المتأزّمة مثلما قال المهدي حينما وصله كتاب من ابنه محمد القائم وهو بجهة تاهرت، فبكى عند قراءته وأنشأ يقول :

يا وَحشَتِي لِلغَرِيبِ في البلادَ النَّـ
ازِحِ ماذا بِنَفسه صنَعا
فَارَقَ أحبَابَهُ فَمَا انتَفَعُوا
بِالعَيْشِ من بعده ولا انتفعا

ففي هذين البيتين يحنّ الخليفة المهدي إلى ابنه، ويظهر

مشاعره الأبويّة، وكان كلّما رآه ونظر إليه يعبّر عن سروره به ويقول عنه :

مبارك الطّلعة ميمونها
يَصلُحُ للدّنيا وللدّين

ويدلّ هذا البيت على افتخار المهدي بابنه الذي قد قام مقامه في كثير من المهام الحربية بالمغرب والمشرق.

* * *

لقد اعتنى الخلفاء العبيديون بالعلوم نظرا إلى المهمّات التي اضطلعوا بها في مجال المناقشات العقائديّة، فكانوا مولعين بالقراءة والمجادلة والتّفكير في مواضيع حكمية والتّدرّب على التّآليف وعدم الاقتصار على فنّ واحد، فكانوا يهتمّون بجميع الفنون : الفقه والطبّ والفلسفة وعلم الكلام والنحو، وكانوا يربّون أولادهم على التعلّق بالعلم والأدب، فكان المهديّ مثلا يغذّي القائم بالحكمة ويرشّحه للإمامة، ويحثّه على النّظر في الطّبّ والعلوم. وكانت حلقات المناظرة العلمية برقادة والقيروان تعقد في الجوامع إثر صلاة الجمعة وفي القصور، وكانت الدروس تركز خاصة على علم الكلام بدقائقه النظرية، وحججه الدقيقة المستمدّة من سائر العلوم والفنون.

كانت المجالس العلميّة بالقيروان في العهد العبيدي تحفل بالعلماء والأدباء والشعراء الذين كانوا يثيرون مسائل

فكرية كانت تشغل الأذهان. كانت الأفكار في هذه المجال تتلاقح، وكان الطلاب يقبلون على حلقات التعليم والمجادلة ليأخذوا ما تستنير به عقولهم وأفكارهم من فنون القول، وطرق المجادلة الفكرية، ودقائق المسائل اللّغوية والنحوية والأدبية عموما.

ويفيدنا كتاب «**المجالس والمسايرات**» للقاضي النعمان وسائر تآليفه بهذه الأجواء العلميّة والأدبية، ومواضيع هذه المجالس التي كثيرا ما كانت تعقد بالعاصمة العبيدية الفاطمية. وما كانت هذه المجادلات لتقوم لو لم يتضلع أصحابها من اللّغة نحوا وصرفا، والأدب شعرا ونثرا، والبلاغة والبيان وطرق المحاجة وإقامة الأدلة.

فقد أصبحت القيروان مركزا ثقافيا وأدبيّاً فكريا منها أشعّت الثقافة الإسلاميّة في كامل بلاد المغرب العربي والأندلس والمشرق وبلدان إفريقيا الإسلاميّة.

* * *

هكذا اعتنى خلفاء الدولة العبيدية الفاطمية في رقادة ثم المنصورية بالعلوم والفنون خاصة منها الأدب شعرا ونثرا، والموسيقى وفنون التلّحين والتّصوير، ولم تكن النّحلة الشّيعيّة «ترى بأسا في السّماع للإيقاع، كما لم تقل بتحريم التّصوير، بل إنها كانت تجوّز تمثيل الأحياء من آدميين والحيوان في صور بارزة منحوتة على الرّخام والنّحاس، أو

مرسومة بالأدهان على الجدران والمنسوجات والبسط تمثيلا واقعيا أو خياليا متقنا»[1].

* * *

المهدي عبيد اللّه هو مؤسّس الدولة العبيدية الفاطمية بإفريقية، والتي دامت من سنة 296هـ إلى سنة 362، وهو من أدبائها وشعرائها. وهو عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد بسلْمية بالشّام وقيل بالعراق سنة 260هـ. وتوفّي سنة 332هـ، بويع له بالخلافة برقادة في ربيع الثاني سنة 297هـ، ودعي له بالإمامة بالقيروان بعد أن تولّى فيها الأغالبة الحكم طيلة 112 سنة، وقامت الدّولة العبيدية على دعائم قويمة، وتواصلت في عهدها في القيروان الحياة الفكرية والثقافية والأدبية في طريق الازدهار والرقي والتألّق.

وقد ابتدأ المهدي بناء المهدية يوم السّبت 5 ذي الحجة سنة 303هـ وانتقل إليها في شوال سنة 308هـ وسيّر ولده وولي عهده أبا القاسم لفتح مصر مرتين، الأولى سنة 301هـ فملك الإسكندريّة والفيّوم وجبى خراجهما وخراج بعض أعمال الصّعيد، وعاد إلى القيروان سنة 302هـ. والثانية سنة 306هـ فملك الإسكندرية أيضا. وقتل المهدي أبا عبد اللّه

(1) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات، ج 2، ص 203.

الشيعي داعيته وأخاه أبا العباس في ذي الحجة سنة 298هـ وأمر بدفنهما في بستان القصر.

يروي المقريزي في كتابه «**اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**» كيف دخل أبو عبد الله إلى مدينة رقادة وأمّن الناس وخرج الفقهاء ووجوه أهل القيروان إلى لقائه وسلّموا عليه وهنّؤوه بالفتح فردّ عليهم رداً حسنا وأمّنهم وقد أعجبوا به وسرّهم فأخذوا في ذمّ زيادة اللّه وذكر مساوئه فقال لهم :

ـ «ما كان إلا قوياً وله منعة ودولة شامخة وما قصّر في مدافعته ولكنّ أمر الله لا يعاند ولا يدافع».

فأمسكوا عن الكلام (ص 87).

ومن أغراض الشعر الملوكي عموما التفاخر بالشجاعة والتجلّد والصبر والقوّة والانتصار في الحروب، يقول عبيد اللّه المهدي في الافتخار بشجاعته وقوّته ورباطة جأشه :

من كان مُغْتَبِطاً بلين حَشيَّة
فَحَشِيَّتِي وأريكتي سَرْجِي
من كان يُعْجِبُهُ ويُبْهِجهُ
نقر الدّفُوفِ ورنَّةُ الصنْجِ
فأنا الذي لا َشَيء يُعْجِبُنِي
إلا اقْتِحامِي لجّةَ الرهْجِ

سلَ عن خمِيسي إذ طلعتُ به
يوم الخميس ضُحًى على الفجّ[1]

يقول ابن الأبار في «الحلّة السّيراء» عن عبيد اللّه المهدي : «كان مع نجدته وشهامته مفوّها فصيحا عالما أديبا» (ج 1، ص 193).

وممّا ذكره ابن الأبار له بيتان في الحماسة :

فإنْ تَسْتَقيمُوا أستَقِمْ لِصلاحكم
وان تَعْدِلُوا عنّي أرى قتْلَكم عدْلا
وأعلُو بِسيفْي قاهراً لِسيُوفكِم
وأدْخلُهَا عفْوا وأملَؤُها قتلا

* * *

إلاّ أن من أهمّ أشعار عبيد اللّه المهدي القصيدة التي تظهر فيها مشاعر الأبوّة إزاء ابنه القائم وهو بعيد عنه في أقاصي المغرب ببلاد كتامة، فقال معبّرا عن عطفه على ابنه واشفاقه عليه، وحنينه إليه، محلّيا هذه المشاعر بمعاني الفخر وتمنّي اللّقاء السّعيد بابنه كي تلتئم جراح البعاد، ويجتمع الشمل العائلي :

أتصبِحُ في كُتامةَ ذا انفراد
تقابِلُها قياماً في قيامِ

(1) ينسب حسن حسني عبد الوهاب هذه الأبيات إلى عبيد الله المهدي في كتابه «مجمل تاريخ الأدب التّونسي»، مكتبة المنار، تونس 1968، ص 78، بينما ينسبها ابن الأبار إلى الداعية أبي عبد اللّه الشيعي انظر : الحلّة السّيراء : ج 1، ص 195.

إذا ما وَقْعَةٌ دارت رَحَاها
بِجزْمِ مفاصلٍ وفِلاَقِ هامِ
أتتْ أخرى تَطُمُّ وتعتليها
يَشيبُ لِهَوْلِها رأسُ الغُلاَمِ
وألتذُّ الحياةَ بِخَفْضِ عيشٍ
مَعَاذَ الله والشَّهْرِ الحرامِ
ولكنَّ التجلُّدَ لِي خدينٌ
فَسِنِّي ضاحِكٌ والقَلْبُ دامِ
عَسَى الرَّحْمَانُ يَجْمَعُنا وشيكاً
وقد تَمّتْ لنا رتَبُ الكرامِ
فأنْقَعَ غلُتّي بك واشتياقي
إليك بحمد ذي المنن الجِسامِ[1]

(1) انظر كتاب : «الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي» جمع وتحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص 33. وكتاب المقفى الكبير للمقريزي اختيار وتحقيق محمد اليعلاوي أيضا، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص 127.

القائم باللّه

هو أبو القاسم محمد القائم بن المهدي، اختلف في اسمه: عبد الرحمان أو حسن أو محمد، وهو الذي كان يقول فيه والده المهدي حين يراه :

مبارك الطلعة ميمونها
يصلح للدنيا وللدين

ولد سنة 279هـ وقيل سنة 280هـ وولي الخلافة في ربيع الأول سنة 322هـ وتوفي في 13 شوال 334هـ.

ظهر في حياته سنة 332هـ الثائر الخارجي مخلد بن كيداد أبو يزيد صاحب الحمار، وقد تغلّب على البلاد في جموع من البربر، وهلك القائم وهو محصور بالمهدية.

إن شعر القائم بالله العبيدي الفاطمي مثال لشعر الخلفاء العبيدين الفاطميين فيما يخصّ معاني الفخر، ومن خلال شعره نتبين نزعات هؤلاء الخلفاء الأدبية وأغراضهم التي تتصل بموضوع الصفات الملوكية خاصة غرض الدعوة العقائدية، والدعاية للمذهب الشيعي.

ولأشعار القائم بالله قيمة وثائقية مهمّة عن نفسيات هؤلاء الملوك الخلفاء الفاطميين، وتغنيهم بالانتصارات الحربية، وتمجيدهم لأنفسهم، والإلحاح على النسبة المحمدّية الشريفة.

ويتنزل شعر القائم باللّه في منزلة الشّعر الدعائي العقائدي السياسي، فكل قصيدة دعوة قوية لنصرة المذهب الشيعي واعتناقه. فالقائم يتغنى بانتصاراته الحربية، وبنسبه الذي ينتمي إلى بيت النبوة، وما يميّز شعر القائم هو أنّه يشهّر بالعباسيين، ويذكر ما يتحلّى به هو من صفات أخلاقيّة ونفسية منها الصبر :

صَبَرتُ وفي الصبّر النجاح وربّما

تعجلّ ذو أمرٍ فأخطا ولم يُصبِ

ومنها ممارسة الحروب، وعلو همته في الانتصارات :

فإنّني رجل لم ترض همتّه

إلا بِبيضٍ وأرْماحٍ وأفْراس

فغالب قصائد القائم الفخرية تعود إلى ضمير المتكلّم الناطق بالبلاغ الملوكي والملحّ على دور الإمام في الدولة العبيدية الفتيّة برقادة.

فكأنّ القائم يوجّه بشعره الشعراء المادحين للخلفاء الفاطميين، كما نراه خاصة عند ابن هانئ الأندلسي والفزاري وعلي الأيادي، فالقائم يفخر بقدسية شخصه وأسرته وأبيه، ويتبجّح بأنّه يستمد انتصاراته من الله تعالى :

أنا سيفُ الإله وابنُ رسول الله (م)
قُطبِ الهدى وللنّاس قِبْلَهْ

وفي بيت آخر يقول:

أنا ابنُ رَسُول اللّه جَدِّي وجَدِّهم
إذا ذُكِر الأقْوَامُ عِنْدَ التّفاضلُ

ويفخر بالنّسب الشريف والمجد والعزّة المكتسبة التي حازها بحدّ السيف:

وما كان من مجدٍ وفخرٍ فإنّنا
حَوَيْنَاه قسْراً بالقنا والمناصلِ
أنا ابنُ رَسُولِ اللّه والبيتِ والصفّيّ
أنا ابنُ عليّ ذي التُّقَى والفضائلِ
وفاطمةَ الزّهراء أمِّي ومنْ بها
سَمَوْتُ إلى العلياءِ أعْلَى المنازلِ

والطريف في شعر القائم باللهِ ذكره لشخصية آخر الأغالبة في انهزامه، فيفخر بالانتصار على زيادة اللّه الأغلبي الثالث ويشّهر به كيف فرّ تاركا قصوره وأمواله وزوجاته وجواريه وخيله غنيمة للمهدي وأبنائه:

كما فرَّ ذاك الأغلبيُّ وقد رأى
مواردَ موتٍ عاجلٍ غيرِ آجلِ
فمرَّ يَحُثُّ الرَّكضَ في كُلِّ مَهْمَهٍ
وخلّى لنَا عَنْ دارِهِ والحَلائلِ

وعن كلِّ خَوْدٍ ذاتِ حُسْنٍ وبهجةٍ
وكلّ جوادٍ في السوّابق صاهِلِ

ويذكر المقريزي في كتابه «**اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**» كيف عرض الخليفة المهدي جواري زيادة اللّه الأغلبي، فاختار منهن كثيرا لنفسه وولده، وفرق ما بقي على وجوه كتامة (ص 92).

وفي شعر القائم نزعة ملحمية إذ يغالي في الافتخار بتعدد وقائعه الحربية وانتصاراته فيها :

ولو أنّني صنفّْتُ كلَّ وقائعي
لطال بها شرْحي وطالت رسائلي

ونراه يردّدُ على غرار ما ورد في الشعر الملحمي العربي القديم خاصة في قصائد عنترة والمتنبي معنى إيثار الموت على حياة الذل والهوان :

لَعِزٌّ يومٍ ومأتى الموتِ في غَدِه
خيرٌ من العيش في ذُلٍّ وأنْكاس

وتمثل هذه الأشعار بدون شك وثائق مهمّة عن أوائل العهد الفاطمي بالقيروان، إذ يذكر القائم برنامجه السياسي وبرنامج الدولة الفاطمية بالمغرب والمتمثّل في احتلال بغداد والقضاء على الخلافة العباسيّة والانتصاب مكانها في المشرق، وهذه كانت غاية الخلفاء العبيديين الفاطميين برقادة ثمّ بالمنصوريّة ضاحيتي القيروان :

إلى أرض مصرٍ والعراقِ وبعدها
فبغدادُ همِّي من جميع المنازلِ
فإنّ بها جوراً شديدا وفتنةً
وفيها أناسٌ كالسّوام الهواملِ
...فسيري على اسم اللّه خَيْلِي وشمّري
إلى بابلٍ حتّى تَحلُّي ببابل

ولا تخفى في هذه القصيدة اللّهجة الحماسية والنزعة الوجدانيّة والموسيقى الناجمة عن ترديد أسماء المدن والبلدان : مصر والعراق وبغداد وبابل في ثلاثة أبيات فقط، وكما يقول الشاعر الفرنسي فيكتور هوقو إن ذكر أسماء المدن في الشعر تضفي جمالية خاصة على الشعر وتصبغه صبغة إلهامية.

ونفس الأغراض التي رأيناها عند المهدي نراها عند القائم خاصة منها غرض الفخر بالتّدين وسلوك مسلك الجد ونبذ الهزل وسلوك مسالك الجهد والأخطار والتعب، يقول القائم :

طربتُ ولم أطربْ إلى الخُرُّدِ العُرُبْ
وما الهزْلُ من شأني ولا اللّهو لي أربْ
فيا مُعرضاً عنّي، وليس بمنصفي
وقد ظهر الحقّ المبينُ لمَنْ رَغِبْ
ألم ترني بِعتُ الرّفاهة بالسُّرى
وقمتُ بدين اللّه حقّاً كما يجِبْ

ألا إنّ حدّ السيف أشفى لذي الوصِبْ
وأبلغُ من رجْع الرسائل والكُتُبْ

* * *

والسؤّال ماذا بقي من شعر القائم باللّه وسائر الخلفاء الفاطميين بالقيروان؟ لقد جمع الدكتور محمد اليعلاوي شعرهم في كتابه «**الأدب بإفريقية**» الصادر سنة 1986 عن دار الغرب الإسلامي، وفيه من شعر القائم خمس قصائد في مائة بيت وهي :

القصيدة الأولى في 23 بيتا قدّم لها المقريزي في «**المقفّى**» بما يلي : قال يفخر بنفسه وآبائه، ويذكر ما فتح من البلاد، ويهجو خلفاء بني العباس، ويذكر «شغب» أم «المقتدر»، أوّلها:

طربتُ ولم أطرب إلى الخُرَّدِ العُرُبْ
وما الهزْلُ من شأني ولا اللّهو لي أربْ

القصيدة الثانيّة : خمسة أبيات وردت في «**المقفى**» للمقريزي أيضا وهي في الفخر.

من كان يرضى بحصْنٍ يستجير به
وقلعةٍ ذاتِ أجراسٍ وأحْراسِ
فإنّني رجل لم ترضِ همتّهُ
إلا ببيضٍ وأرماحٍ وأفراسِ

القصيدة الثالثة في 18 بيتا وردت في كتاب «**عيون الأخبار**» للداعي إدريس، وهي في الفخر أيضا، والمباهاة

بنفسه وبوالده والدعاية لمذهبه الشيعي العقائدي. توجّه بها إلى والده في رسالة كتبها وهو بالإسكندرية حين فتحها :

أنا سيف الإله وابن رسول الـ
ـلّـه قطبِ الهدى وللناس قِبْلَهْ
وإذا ما الغمامُ استجمّ جدوا
هُ يكون الإمام للنّاس مثِله

وقد خاطب فيها والده المهدي بقوله :

فأنا سيفُك الذي يفلق الها
م فلا نبْوةٌ له إن تسلَّه

القصيدة الرّابعة وهي طويلة في 43 بيتا وردت في كتاب «**عيون الأخبار**» للداعي إدريس، ويرى الأستاذ محمد اليعلاوي أنّ : «هذا القصيد، على طوله، لا ينفح بالخيالات والصور، ولا يتسم بالمتانة والجزالة حتى المعاني الشيعية فيه باهتة لا قوة فيها ولا حمية حقيقية، وفائدته تنحصر في تأكيد مقاصد الدولة في اقتحام المشرق والإطاحة بالدولة العباسيّة الغاصبة للخلافة، القاعدة عن واجباتها نحو الأمّة والدين» (ص 100)، أول القصيدة :

سلام على آل النّبيّ ورهطه
وشيعته أهلِ النّهى والفضائل

القصيدة الخامسة في أحد عشر بيتا يبتدئ كل بيت فيها باسم الجلالة، وينتهي به وقد وردت في «**المقفّى**» للمقريزي،

وهي قصيدة دينية في الاعتبار والشّكر لله، فيها ابتهال ودعاء من قبيل الذّكر والتسبيح والامتنان لله تعالى. يقول فيها :

اللهّ لي ثمّ إمام الهدى
ما ضاع من كان له اللهُّ
الله جلَّ الله لي صاحب
سقيا لمن صاحبُهُ اللهُ
...الله قد أرسل خير الورى
محمدا أرسله اللَّهُ
الله قد أخرج مهديّه
وحجّتُه أظهرها الله
الله لي في كلّ حال كما
كان لآبائي، كذا اللهُ

المنصور باللّه

هو الخليفة الفاطمي المنصور باللّه بن القائم بن المهدي، وهو أبو الطّاهر إسماعيل، ولد برقّادة سنة إحدى وثلاثمائة أو إثنتين وثلاثمائة، وولي الخلافة في شوال سنة 334هـ وتوفي في شوال سنة 341هـ.

تغلّب على أبي يزيد الخارجي النكّاري المشهور بصاحب الحمار سنة 336هـ. وسمّي المنصور لانتصاره عليه، وإثر هذا الانتصار بنى المنصورية قرب القيروان، وبنى له فيها فتاه مدام قصرا أثناء غيبته.

يقول المقريزي عن المنصور في كتابه «**اتّعاظ الحنفاء**» : «كان فصيحا، بليغا، خطيبا، حاد الذهن، حاضر الجواب، بعيد الغور، جيّد الحدس، يخترع الخطبة لوقته، وأحواله (...) تدلّ على شجاعته وعقله» (ص 129).

ويذكر المقريزي عن سبب وفاة المنصور أنّه خرج في شهر رمضان سنة 341 يتنزّه في مدينة جلولاء قرب القيروان فأصابه في الطريق ريح شديد ومطر وكثر الثّلج فاعتلّ من ذلك.

ويصف المقريزي جلولا بأنها موضع كثير الثمار وفيه من الأترج ما هو عظيم، لا يحمل الجمل منه غير أربع أترجات لعظمه.

وقد تناول الأستاذ محمد توفيق النيفر في أطروحته عن الحياة الأدبيّة بإفريقية في العصر الفاطمي ترجمة حياة المنصور باللّه الفاطمي، ورجع إلى عديد المصادر الشّيّعيّة وغيرها عنه وبيّن «ما اتّصف به المنصور من شجاعة أسطوريّة، ومن رباطة جأش خارقة، ومن جلد وصبر نادرين، ومن ذكاء سياسي فذّ، ومن دراية بقيادة الجيش واسعة»[1]، وخاصّة حبّه للعلم والأدب إذ «زرع فيه جدّه المهدي حبّ العلم والكتب فكان يقتنيها ويبذل فيها الأموال الطائلة ويحرص على الاحتفاظ بها وصونها وخاصة كتب أجداده في علوم الظاهر والباطن»[2].

وللمنصور تآليف منها كتاب تثبيت الإمامة لعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، وكتاب الوصيّة وكتاب «جامعة الجامعة»، ومجموعة خطب.

وفي كتاب «الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي» لمحمد اليعلاوي مجموعة من خطب المنصور تدلّ على تضلّعه من

---

(1) انظر : محمد توفيق النيفر. الحياة الأدبية بإفريقية في العهد الفاطمي، مركز النشر الجامعي وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، ج 1، ص 412..

(2) نفسه : ص 414.

البلاغة، وتفقهه في العلوم، ويبدو أن المنصور كان يرتجل خطبه، ويمكن أن نقارنها بخطب الإمام علي كرّم الله وجهه في كتاب «**نهج البلاغة**»[1].

* * *

بقي لنا من شعر المنصور قصيدتان في خمسة عشر بيتا، الأولى رائية في ستة أبيات والثانية لامية في تسعة أبيات. ويتميّز شعر المنصور عموما بالجزالة خاصة في قصيدته الرّائية الفخرية، وبالرّقّة وشدّة رهافة الحسّ في قصيدته التي خاطب بها ابنه المعزّ لدين اللّه وليّ عهده، ففي الأولى حماسة وتغنّ بسيفه وهو سيف جدّه ذو الفقار، سيف علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه.

وفي القصيدة الثّانية شكوى من الأتعاب المنجرّة عن جوب الصّحاري والقفار لمواجهة المخاطر والاستعداد لمقاتلة مخْلد بن كيداد الخارجي، وخاصة الشّكوى من البعاد عن الأهل، وبالأخص عن أولاده وزوجاته وجواريه بالقيروان، ويعلمنا المقريزي أنّه له من الأولاد الذكور خمسة أولاد وخمس بنات وكانت له أمهات أولاد ثلاث. أما أسماء بناته : فهي هبة وأسماء وأروى وأمّ سلمة وسموّرة.

---

(1) محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، جمع وتحقيق، دار الغرب الإسلامي، 1986.

يقول المنصور مفتخرا بلهجة ملحميّة :

ألمْ ترني بعتُ المقامة بالسُّرى
ولينَ الحشايا بالخيول الضوامر؟
... أروني فتًى يُغني غنَائي ومشهدي
إذا أرْهجَ الوادي بوقع الحوافرِ
أنا الطّاهرُ المنصورُ من نسلْ أحمدٍ
بسيَفْي أقُدُّ الهامَ تحت المَغافرِ

والمغافر : ج مغْفَر، وهو نوع من الخوذ يقي الرّأس في القتال. وأرهجِ الوادي : أثير فيه الغبار.

يقول الأستاذ توفيق النيفر معلّقا على هذه الأبيات :

«قد جاءت معاني الفخر مصورّة أصدق تصوير لنفسية المنصور وأخلاقه وقيمه في الحياة فافتخر بشجاعته ورباطة جأشه واستبداله روائح العطور الزكية بروائح صدإ الدّروع، ونعمة الجلوس على الفرش بشدّة امتطاء الضّوامر من الخيل، وذكر صبره وجلده وتجواله في البلاد وغربته وشوقه، كل ذلك طلبا لرضى الله وإعزازا لدولة آل الرسول»[1].

أمّا القصيدة الثانية فهي لامية، وهي في تشوق الشاعر إلى ابنه المعز أبي تميم مَعَدْ مضمنّا إياها معاني الفخر، ومبشرّا إياه بفوزه في إحدى المعارك في أقصى المغرب بعيدا

---

(1) محمد توفيق النيفر : الكتاب المذكور، النسخة المرقونة بمكتبة كليّة الآداب والانسانيات والفنون بمنوبة : ص 224 ونلاحظ أن الجزء الأول فقط قد طبع إلى حدّ الآن.

جداً عن القيروان، فمن الصفات التي افتخر بها الشجاعة والتقى والصبر، يقول :

كتابِي اليكَ من أقصى الغُروبِ
وشوَقي إليك طويلٌ طويلْ
أجوبُ القفار وأطْوي الرّمالَ
وأحمْلُ نفسي لهولٍ مهُولْ
أريد بذاك رضى خالقي
وإعزاز دولة آل الرسولْ
إلى أنْ برى السيْرُ أجْسامَنَا
وكَلَّ الرِّكابُ وتاه الدليلْ

يلح الشاّعر في هذه القصيدة على بعض المعاني معبرّا عن حاله وحالته النفسيّة، ويبيّن له ما جرى له في سفره البعيد، والسّبب الذي من أجله تجشّم هذه المصاعب والمخاطر، وهو خاصة سبب ديني :

أريد بذاك رضى خالقي
وإعزاز دولة آل الرّسول

وتغلّف هذه القصيدة مسحة من التألّم والشجن والوحشة، و هي في الحقيقة دروس أخلاقيّة كتبها المنصور للمعز ليقتفي آثار والده في أخلاقه وصفاته، وهي في الواقع وصيّة ليتحلّى الابن مثله بالصبّر، ويلهج بالشكر والحمد لله على نعمه الكثيرة التي أجزلها للبيت العبيدي الفاطمي

بالقيروان حتى استطاع أن يفتح مصر وكثيرا من بلدان المشرق.

يقول المنصور باللّه الفاطمي :

فيا غربتاهْ! ويا وحشتاهْ!

وفي اللّه هذا قليلٌ قليلْ

وما ضقْتُ ذَرْعاً ولكنّني

نَهضَتُ بقلب صبورٍ حمُولْ

وقد منَّ ذو العرش من فضله

بفتح مُبِينٍ وعزٍّ جليلْ

وفي كلّ يومٍ من اللّه لي

عَطاءٌ جديدٌ وصُنْع جميلْ

فللّه حَمْدٌ على ما قضَى

وحسبي بربّي ونعمَ الوكيل

في هذه القصيدة مسحة من الشجى والشجن، وهي رسالة بعثها أب إلى ابنه البعيد عنه، يشتكي فيها من غربته، ومن بعده عن القيروان، ومن مرارة الفراق، ويعبّر عن أشواقه المضطرمة في لُغةٍ سهلة، لكنّها بليغة، صادرة من أعماق النفس، وتعتبر هذه القصيدة من الأدب الوجداني إذ تكشف لنا عن مشاعر المنصور، وقد تعب في الحملات التي قادها ضد صاحب الحمار مخلد بن كيداد النّكّاري الخارجي. ويعلم المنصور ابنه أنّه لم يجزع ولم يتململ ولم يفقد رباطة

جأشه ولا صبره. ويبشّره بالفتوح المتوالية منّاً من الله تعالى عليه:

وفي كلّ يومٍ من اللّه لي
عَطاءٌ جديدٌ وصُنْعٌ جميلْ
فللّهِ حَمْدٌ على ما قضى
وحسبي بربّي ونعم الوكيل

المعز لدين اللّه الفاطمي

المعز لدين اللّه الفاطمي هو أبو تميم معد بن إسماعيل المنصور باللّه. ولد بالمهدية سنة 319هـ، وانتقل إلى مصر في شعبان سنة 362هـ، وتوفي في جمادى الأولى 364هـ دامت خلافته 24 سنة، إذ ولي الحكم بعد وفاة أبيه المنصور في شوال سنة 341هـ

أغزى المعز جوهر المغرب وافتتحه، ثم أغزاه مصر فافتتحها في شعبان سنة 358هـ بعد وفاة كافور الأخشيدي.

وكان يقول عنه :

«عقله عقل امرأة والذين معه من الجند أسوأ حالا منه وقد اعتادوا الترفه والأكل والشرب وليست لهم بالحرب عادة».

وكان الفاطميون يسمون كافور «الحجر الأسود» يقولون أيضا : إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدّين اللّه الأرض كلّها، وبيننا وبين مصر الحجر الأسود»[1].

---

(1) القاضي عبد الجبار الهمذاني : تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد من كتاب «الجامع في أخبار القرامطة» ص 325، وانظر كتابنا : أبو الطيب المتنبي، تونس 1993.

وابتنى له جوهر القاهرة فانتقل إليها المعز في آخر شوال سنة 361هـ واستخلف على افريقية بلكيّن أبا الفتوح يوسف بن زيري. فيكون قد بقي خليفة بالقيروان مدّة عشرين سنة، ساد فيها الرّخاء وبلغت الثّروة بإفريقية مبلغا عظيماسجلّته لنا كتب التاريخ، وبقي المعز خليفة بالقاهرة ثلاث سنوات، وكان المعز مولعا بالقراءة والمجادلة وتأليف الكتب إذ ربّي على التّعلّق بالعلم، وكان يغذّي نفسه منذ الصّغر بالحكمة والنّظر في كتب الطبّ والفلسفة والأدب ومختلف الفنون، كان يقول :

«واللّه إنّي لأجد من اللّذّة والرّاحة والشّهوة في النّظر في الحكمة ما لو وجده أهل الدّنيا لاطرحوها لها، ولولا ما أوجب الله سبحانه عليّ من أمور الدّنيا لأهلها وإقامة ظاهرها ومصالحهم فيها لرفضتها للتلذّذ بالحكمة والنّظر فيها»[1].

وكان المعزّ يخرج الكتب من مكتبته للقاضي أبي حنيفة النّعمان ويأمره أن يقرأها على النّاس في كلّ يوم جمعة في مجلس قصره.

وقد انتشرت بيوت الحكمة في القيروان خاصة في رقادة والمنصورية، وتعدّدت المجالس العلميّة التي كانت تثار فيها أدقّ المسائل العقائديّة، وأعقد المعضلات النحوية والبلاغيّة والعلميّة بصورة عامة.

---

(1) القاضي النّعمان : المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شبّوح ومحمد اليعلاوي، تونس 1978، ص 94.

وألّف المعزّ عديد الكتب منها كتاب الرّوضة، وكتاب المناجاة والرّسالة إلى حسن القرمطي والرّسالة المسيحيّة.

قال المعز عن والده :

«كان المنصور إذا أفادني شيئا من العلم والحكمة ربّما قال لي : عاودني فيه، وسلني عنه وعن معانيه وناظرني واحتجّ عليّ وأرني أنك قصّرت عن فهمه (...) فكنت أفعل ذلك فيتدفّق عليّ من بحور العلم والحكمة ما لم أكن أظنّه»[1].

وكان المنصور كثيرا ما يأمره أن يؤلّف كتابا أو يصنع بيتا أو يطلب منه أن يجيزه بنصف بيت. قال القاضي النّعمان عن المعز :

«وجدناه (...) قد نظر في كلّ فن، وبرع في كلّ علم وإذا تكلّم في فنّ منها أربى على المتكلمين، وكان فيه نسيج وحده في العالمين. أما علم الباطن ووجهه فهو البحر الذي لا تخاض لجّته، ولا يدرك آخره (...) وأمّا الطبّ والهندسة وعلم النّجوم والفلسفة فأهل النّفاذ في كلّ فنّ من ذلك في يديه، وكلّهم في ذلك عيال عليه، يخترع في كلّ يوم لهم من الصّنائع، ويبدع لهم فيه البدائع من دقائق معانيه وما تحار أذهانهم فيه»[2].

وكان المعز يدخل في الليل ويحضر خاصته ويبيت ينظر في الكتب والعلوم، وكان يؤلّف الكتب أغلب ليله، هذا دأبه[3].

---

(1) نفسه : ص 133

(2) نفسه : ص 138.

(3) نفسه : ص 332.

وتكشف كتب التّاريخ الخاصة بالأيمة الفاطميين بالقيروان خاصة ضاحتيها رقادة والمنصورية مدى اعتنائهم بالفنون والآداب والعلوم، وبناء القصور، وتنضيد الحدائق، وإقامة القنوات الحاملة للمياه التي تسقي هذه الحدائق، وقد وصف الرّحالون والمؤرّخون المنصورية في أبهى منظر، وأبهج حلّة من التّفنّن في المعمار، وغرس الأشجار من كلّ نوع، وقد اتّسمت قصورهم بالضّخامة والعظمة والبهجة والجمال، من أهمها قصر البحر الذي بناه المعزّ بالمنصوريّة، وصفه المؤرّخون بأنّه كان مفخرة من مفاخر الفاطميين، وأنّه قد فاق بجماله وروعته قصور بغداد وقرطبة[1]. وقد أنفق الفاطميون أموالا طائلة، بلغت إفريقية في عهدهم مبلغا عظيما من الثروة ناهيك بتلك الأموال الضخمة التي أخذوها معهم من إفريقية وصرفوها على بناء مدينة القاهرة وقصورها ومساجدها، وهذه المباني الرّاجعة إلى عهد المعزّ لدين اللّه برهان قاطع على ثروة الدّولة الفاطمية في عهده بإفريقية.

و«من مظاهر الثراء في عهد المعزّ تلك النهضة العمرانيّة التي نراها في بناء القصور الضخمة في بلاد المغرب، وإنشاء البساتين والميادين الواسعة والفوارات الجميلة والقنوات العجيبة التي كانت تأخذ ماءها من الجبال ثم تسير في طريقها إلى مدينة المنصوريّة مخترقة السّهل والحزن ثم أليس فيما

---

(1) حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدّين اللّه الفاطمي إمام الشيعة الإسماعلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة 1946.

بذله الفاطميون من أموال ضخمة على بناء مدينة القاهرة وقصورها ومساجدها البرهان القاطع على ثروة الدولة الفاطمية في عهد المعز؟»[1].

كما أنّ «من أهمّ مظاهر الثروة في عهد المعز لدّين اللّه تلك الأموال الضخمة التي أنفقها هذا الخليفة في سنة 351هـ حين عزم على ختان أبنائه، فقد رأى أن يشرك رعيته في أفراحه وحتم أن يقدم الأهلون أبناءهم الصغار ليختتنوا (...) وتدفقت الأموال من مدينة المنصورية حاضرة الفاطميين إلى الولايات المختلفة»[2].

وتفيد كتب التّأريخ أنه اختتن في مدينة المنصوريّة وحدها نحو مليون من الصبيان.

«كما عني المعزّ بالثقافة عنايته بالفن فعمل على تشجيع الثقافة العلميّة والمذهبيّة، وكان يعقد المجالس العلميّة في قصره بالمنصورية خاصة ويناقش العلماء والفلاسفة ويحث رعاياه على الاطلاع والبحث... وفتح أبواب قصره للعلماء وجعل مكتباته تحت تصرفهم (...) كان مؤلفا وفقيها ومتكلما ومفسرا ومحدّثا وفيلسوفا، ويعتبر عصره من أزهى عصور الخلفاء الفاطميين من الناحية العلميّة حتى لقد نبغ في عهده علماء كثيرون وشعراء كثيرون كابن هانئ الأندلسي وتميم بن المعز»[3].

---

(1) نفسه : ص 279.

(2) نفسه : ص 273.

(3) نفسه : ص 301.

وقد «بلغ اهتمام المعز بالفن والثقافة مبلغا عظيما فعني بالعمارة في المغرب ومصر، وأكثر من بناء القصور وتنسيق الحدائق في المنصورية، كما شق القنوات التي تصل إلى حاضرة الدّولة. وتزيد في لهجتها وجمالها حتى لقد بهرت حاضرة المعز سفراء الدولة البيزنطية لما شاهدوه من اتساع ميادينها وكثرة حدائقها وعظمة قصورها.. ولا غرو فإن قصر البحر الذي بناه المعز في المنصورية كان مفخرة من مفاخر الفاطميين وقد فاق بجماله وروعته قصور بغداد وقرطبة»[1].

ويقول حسن حسني عبد الوهاب : «إذا ما أتيح لنا أن نعلم وفرة الجواري والحظايا في قصور الفاطميين برقادة والمهدية والمنصورية مثل قضيب وسلاف وخمرة ونشوى وغيرهن جزمنا بلا ارتياب ما كان يوجد بين جدرانها من الفنانين والمغنين وأرباب آلات الطرب والترنيم إذ أنّ كثرة ربات الحجال بالقصور دليل قاطع على الاحتفاء بالموسيقى والرقص وما إلى ذلك في مجلس الأنس»[2].

فلم تكن هكذا تخفى ظاهرة البذخ والترف في البيئة الفاطميَّة بإفريقية مما دفع الناس إلى الانسياق وراء الملذات، وإشباع الشهوات الحسية، والتمتع بالجواري.

وقد أخذ المعز معه إلى مصر أموالا ضخمة حملت على

(1) نفسه : ص 299.

(2) ورقات : ج 2، ص 205 ـ 206.

ألف بعير، ويقدر المؤرّخون أن هذه الأموال بلغت أربعة وعشرين مليونا من الدنانير، أضف إلى ذلك الأموال والإمدادات التي كانت ترسل إلى مصر تباعا، «كل هذا يبيّن مدى ضخامة مالية الفاطميين في عهد المعز»[1]، كما أن كثيرا من الأدباء والشعراء قد صاحبوا المعز إلى القاهرة التي بناها له جوهر بأمر منه، نذكر منهم القاضي النّعمان وابن هانئ الذي توفي وهو في طريقه إليها. وقد انتقلت مكتبة المعزّ الضخمة والمكتبات التي في جوامع القيروان ورقادة والمنصوريّة إلى القاهرة، وبنى المعز جامع الأزهر وزوده بكثير من هذه الكتب، وشجع على التّعليم به.

أمّا شعر المعز لدّين اللّه الفاطمي فقد بقي لنا منه قليل بالنسبة إلى ما صاغه من أشعار كما أعلمنا بها القاضي النّعمان في كتابه «**المجالس والمسايرات**».

إلا أن ما بقي لنا من شعره ليس في غرض الفخر، ولا في غرض الحماسة مثلما وجدناه عند أبيه وجدّيه، وحفظه لنا الداعي إدريس عماد الدّين القرشي في كتابه «**عيون الأخبار وفنون الآثار**»[2]

---

(1) نفسه : ص 277.

(2) انظر : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار للداعي إدريس عماد الدّين، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2006. وقد نشر الأستاذ المرحوم فرحات الدشراوي أيضا جزءا من تاريخ الداعي إدريس بعنوان «تاريخ الدولة الفاطميّة بالمغرب، المهدي، القائم، المنصور، ثورة أبي يزيد» الجزء الخامس، تونس 1979.

إن المقطوعات الثلاث التي بقيت من شعر المعز لدين اللّه تتصل بغرض النسيب، وهي أبيات قليلة لكنّها تتميز بقوة الأسر، وجودة السبك، وعذوبة الصور، وإيحاء المعاني، وقوة الإبداع، ولا يبدو فيها التكلف أو ثقل التصنع بل تدل على مهارة في قرض الشعر، وتمكّن كبير من البلاغة وفنون القول، وتقمص لدور الشاعر العاشق، المفتون بالجمال. فها هو ذا المعز يستعمل الصور البلاغيّة التقليديّة، لكنه أضفى عليها من سمات السلاسة والعذوبة قدرا كبيرا، فهو يشبّه الوجه بالبنفسج والورد، ولا يخفى ما في هذه الصورة من إيحاء بالجمال خاصة فيما يتعلق بحاستي النظر والشم فيقول :

ما بان عذري فيك حتّى عذّرا
وبدا البنفسجُ فوق وردٍ أسمرا
هَمَّتْ بقُبْلَته عقاربُ صُدغِه
فاستلّ ناظرهُ عليها خنْجَرَا

وهو تارة يستعمل صورة الجبين الشبيه بالشمس ويردد صورة الخد الشبيه بالورد، فيقول :

أطلع الحسْنُ من جبينكِ شمسا
فورق وردٍ في وجنتيكِ أطلاَّ
وكأنّ الجمال خاف على الورْ
دِ جفَافاً فمدَّ بالشَّعْرِ ظلاَّ

ومن أبلغ ما وصفت به عينا الحبيبة وشدة تأثيرهما في الشاعر في الأدب العربي هذه الأبيات التي يشكو فيها المعز لدّين اللّه الفاطمي من بعد الحبيب وهجره، وطول هذا الجفاء، فهو يستجير بالله من ظلمه بل يتعجب من مفعول نظرات تلك المحاجر فيقول:

للّه ما صنعَتْ بنا
تلك المحاجرُ في المعاجرْ
أمضى وأقضى في النُّفُو
س من الخناجر في الحناجِرْ
ولقد تعِبْتُ ببيْنكم
تعبَ المُهَاجِر في الهواجِرْ

هكذا يبرز شعر المعز لدين اللّه الفاطمي شاعرا رقيق العواطف، مرهف الشعور، واسع الخيال الفني، صاحب ملكة شعريّة وموهبة أدبية فريدة تدل على أصالة تكوّن المعز الأدبي، ومدى تضلّعه من فن الخليل بن أحمد، وتعمّقه في فنّي البيان والمعاني.

* * *

يقول حسن حسني عبد الوهاب عن المعز لدّين اللّه الفاطمي[1].

(1) ورقات، ج 3، ص 367.

«أشهر الملوك في زمانه وأبعدهم صيتا، تولّى بعد أبيه إسماعيل المنصور، وقد حذق العلوم واللّغات الأجنبية السائرة وقتئذ كالبربرية والإفريقية واللاتينية، واشتهرت دولته برجال أفذاذ ساعدوه على امتلاك جل العالم العربي في زمانه».

أمّا عن انتقال المعزّ إلى مصر فيذكر أنّه حين تجهز للرحيل أعدّ ألف حمل من الذهب جعلها كالأرحيّة ووضعها على ظهور الإبل، وأمر ببناء قصر في كل ثلاثين ميلا ما بين القيروان ومصر، وكان خروجه من صبرة المنصورية بأهله وجنده وذخائره في احتفال لم يسمع بمثله» (ص 370).

تميم بن المعز لدين اللّه الفاطمي

خلّف لنا تميم بن المعزّ المتوفّى سنة 375هـ ديوانا طبع بمصر، احتوى على مدائحه لأبيه وأخيه وأشعاره الغزلية والفخرية خاصة، فهو ابن خليفة وأخو خليفة وحفيد خليفة، ولد بالمهدية وعاش بإفريقية بين القيروان والمنصورية والمهدية خمسا وعشرين سنة، قضى فترة شبابه بإفريقية خاصة بالقيروان، ثم ارتحل إلى مصر بعد فتحها على يدي جوهر، يعجّ ديوانه بالأشعار الغزلية التي تكشف لنا عن شخصية تحبّ متع الحياة، وتتعلّق بالمفاكهات ومجالس الأنس والطّرب واللّهو.

عاش حياته الأولى حياة دراسة وتعلّم واستفادة واطّلاع، فتلقّى فقه الشيعة وفنون اللّغة وفلسفة الإمامة وأسرارها من أبيه ودعاة أبيه[1]. يقول محقق الديوان :

«أعزو إلى مكتبة الفاطميين أوفر قسط وأكبر نصيب في حياة تميم (...) إن المكتبة الفاطمية قد وعت مئات الألوف من

(1) ديوان تميم بن المعز الفاطمي : تحقيق الأستاذ محمد حسن الأعظمي، دار صادر، بيروت 1970، ص 19.

المجلّدات، وهم لم ينشؤوها ولم يخلقوها مرّة واحدة. فقد كانوا يعنون بالعلوم ويضطلع أئمّتهم بأصولها وفروعها مستترين أو ظاهرين، ولمّا قام ملكهم بالمغرب كان منافسوهم في الملك يتنافسون في حلبة العلوم والفنون ويجمعون من مراجع اللّغة ومصادر الدّين ما يفوق الحصر والعدّ» (ص 18).

ويتماشى هذا القول مع قول حسن حسني عبد الوهاب في «**مجمل تاريخ الأدب التّونسي**» (ص 77) :

«إن الحركة الفكرية الظاهرة في العصر العبيدي لم تكن ناشئة في الحقيقة عن مجرّد وجود مذهب دخيل وهو المذهب الشيعي. وإنّما هي ثمرة التمدّن الإسلامي الذي أحرزته إفريقية في ذلك العصر بفضل ما سعاه الولاة من قبل الدّولتين الأموية والعباسية ولا سيما بما بذل الأمراء من بني الأغلب من العناية في ترقية البلاد، ثم أكمله أفراد الأسرة العبيدية الظاهر أمرها في عنفوان شباب القوّة والحضارة الإسلاميّة العظيمة الشأن الدّالة على رسوخ قدم التمدّن في إفريقية، فأنشأوا المعالم الضخمة الجليلة الفائدة، وساعدوا الرقي الفلاحي والصناعي بالعون حتى أصبحت البلاد الإفريقية في مدّتهم لا يماثلها مصر من الأمصار، ولا الأندلس في غزارة العمران. يضاف إلى ذلك أن أمراء هذه الأسرة كانوا جميعا في مرتبة عالية من المعارف، فما منهم من لم يقرض الشعر، وينطق بالخطبة الفصيحة ارتجالا. لا فرق بين متولّي الحكم منهم ومجرّد الأمير».

ويقول ابن الآبار في «**الحلّة السّيراء**» عن تميم :

«شاعر أهل بيت العبيديين غير منازع ولا مدافع، وكان فيهم كابن المعتز في بني العباس غزارة علم ومعانة أدب وحسن تشبيه، وإبداع تخييل، وكان يقتفي آثاره ويصوغ على مناحيه في شعره أشعاره، ولاّه أبوه المعز لدين اللّه معد بن إسماعيل المنصور عهده، وبه كان يكنّى، فخُلع برأي جوهر الصقلّي لأنّه كان عقيما لا يولد له، وولي أخوه عبد اللّه العهد فتوفي في حياة أبيه، ثم ولي العهد أخوه أبو المنصور نزار العزيز بالله، وانتقلا من افريقية إلى مصر بانتقال أبيهما معد بن إسماعيل في آخر سنة 361هـ. وشعر تميم مدوّن، ومحاسنه كثيرة وتصرفاته بديعة، ووقع منه في كتابيْ الحصري «زهر الآداب وثمر الألباب» و«نور الطّرف ونوْر الظرف» كل نادر غريب. وكان تميم لما استقر بمصر وتوفّي أبوه في شهر ربيع الآخر سنة 365هـ وولي أخوه نزار يمدحه ويداريه طلبا للسلامة منه، لأنّه لم يكن يأمن عاديته بسبب انخلاعه عن العهد»[1].

ومن أخبار تميم أنّه ركب يوما إلى بعض البساتين بالمنصوريّة فأرسل المعزّ في طلبه للخدمة التي كان يتولاّها بين يديه، فجاء مبادرا، وتعذّر لقاؤه فكتب إليه :

---

(1) ابن الآبار : الحلّة السيراء : ج 1، ص 291 ـ 292.

مالي عجلْتُ إلى دعائكْ
وحرمتَ حظّي من لقائكْ
وتركتني مستوحشا
لمّا عزمْتُ على اصطفائك
حتّى لقد أوهمتني
أنّي أخونك في وفائك

ومن شعر تميم في الفخر من قصيدة طويلة تبلغ 20 بيتا :

هممي أنافت بي على الهِمم
قبل الفطام ومبلغ الحُلُم
وسما بقدري في العلى أدبي
حتّى وطئتُ كواكب الظُّلم
تُثني عليّ إذا سكتُّ يدي
بسماحها وتُضئ لي شيمي
وإذا الكرامُ جفَوا تكرّمهم
لؤما فإنّي عاشِقٌ كرمي
في كلّ صالحة مددتُ يدي
ولكلّ مكرُمة سعت قدمي
... والمجد فرعٌ أصلُه كرمي
والدّهر رمح سِنُّه قلمي
والشّمس من عِرضي تلألؤها
بسناه والأيّام من خدَمي

الدّولة الصنهاجيّة

تميم بن المعزّ بن باديس

هو تميم بن المعزّ بن باديس بن منصور بن بلكّين بن زيري، ولد بصبرة المنصورية في 13 رجب 422هـ وتوفي في 15 رجب 511هـ. عيّن ولي عهد لأبيه المعز بن باديس سنة 442هـ، وولاّه المهدية سنة 445هـ.

ويعتبر عهد أبيه المعز بن باديس الصنهاجي من أكثر عهود إفريقية ازدهارا من حيث الاقتصاد والآداب والثّقافة، حكم المعز إفريقية طيلة نصف قرن من الزمان، ولد بالمنصورية سنة 398هـ وتولّى الملك سنة 406هـ، وتوفي سنة 454هـ .تلقى العلم على أيدي أشهر الأدباء والعلماء في عصره، نذكر منهم الحاجب عبد الوهاب، والمؤرّخ الأديب الشاعر إبراهيم الرقيق، والعالم الفلكي أبا الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني.

واشتهر المعز بتقريبه للشّعراء والأدباء والعلماء وإسناد الجوائز لهم، وقد اجتمع في بلاطه بصبرة المنصورية عدد كبير من الشّعراء والأدباء ما لم يجتمع لغيره من الملوك عددا ونبوغا وتألقا في نظم الشعر وتصنيف التآليف في النقد الأدبي وعلوم اللّغة والأدب والبيان.

قال عنه ابن خلكان في كتابه «**وفيات الأعيان**» : «كان ملكا جليلا، عالي الهمّة، محبّاً لأهل العلم، كثير العطاء، مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء، وكانت حضرته محط بني الآمال».

نذكر من شعرائه ابن رشيق وابن شرِف وعلي الحصري القيرواني وأبا بكر الصابوني وابن الربيب وعبد الواحد بن فُتوح وابن عبدون السوسي وعبد اللّه الشقراطسي وأبا الفتوح السوسي.

وكان المعز بن باديس ينظم الشعر ويطلب إجازته من الشّعراء، ولكن لم يبق لنا بيت واحد من نظمه. وكان يهادي العلماء بالكتب، ومماّ يذكر عنه أنه اهدى مرّة أديبا تسعمائة مجلد من نفائس الكتب أرسلها إليه على رؤوس الحمالين عقب مجلس علمي استحسن فيه المعز آراء هذا الأديب وهو أبو بكر عتيق السوسي[1].

في هذا الجو الحضاري وهذه البيئة الأدبية والثقافية اللامعة التي وصفناها في كتابنا «تاريخ القيروان الثقافي والحضاري» نشأ الملك الشاعر تميم بن المعز بن باديس وتكون.

ولقد تخرج تميم مثل معاصريه من الشّعراء والأدباء واللّغويين من مدرسة القيروان الأدبية التي حلل أستاذنا المرحوم الشاذلي بويحيى اتجاهاتها ومضامينها ومميزاتها

---

(1) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، مكتبة المنار، تونس 1970، ص 62.

الأدبية والفنية في كتابه «**الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري**»[1].

* * *

توفي الأمير الشاعر تميم بن المعز بن باديس سنة 501هـ، ونقل إلى رباط المنستير حيث دفن، كان أبوه قد ولاه المهدية فأقام فيها إلى أن ألتجأ إليها أبوه المعز إثر الغزوة الهلاليّة للقيروان، فخرج إليه تميم وقبّل الأرض بين يديه فأقام بها، وتميم ينفذ الأمور في حياته إلى أن توفي. يقول لسان الدّين بن الخطيب عن تميم: «تميم أحد شعراء أبناء الملوك، وممّن يناظر ابن المعتز في المشارقة» (ص 78). ومن شعره الذي حفظه لنا ابن الخطيب:

بِكَرِّ الخيلِ داميةِ النّحورِ
وقَرْعِ الهَامِ بالقُضُبِ الذّكورِ
لأقْتَحِمَنَّها حَرَباً عَوَاناً
يشيب لهولها رأسُ الصغيرِ
فإمّاً المُلْكُ في شَرَفٍ وعزٍّ
عليَّ التّاجُ في أعلى السريرِ
وإمّاً الموتُ بين ظُبَى العوالي
فلستُ بخالد أبد الدهورِ

* * *

(1) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبيّة بإفريقية في عهد بني زيري (بالفرنسية)، الشركة التّونسيّة للتّوزيع، تونس 1963. ونشرت بيت الحكمة بقرطاج الترجمة العربية للكتاب في جزأين من تعريب محمد العربي عبد الرزّاق، تونس 1999.

نشأ تميم في القصر المعزّي في جوّ يسوده الترّف والبذخ، وفي بلاط عامر بالشعراء والأدباء من أمثال ابن رشيق وابن شرف وعلي الحصري، وكان يحضر المجالس الأدبية والشعريّة والغنائية، فنشأ محبّا للأدب، قارضا للشعر، مقدّرا للشّعراء والفنانين، وقد كلّف والده المعزّ خيرة العلماء في مدينة القيروان بالسّهر على تلقينه العلوم خاصة منها اللّغوية والأدبية والبلاغيّة، وعيّنه والده أميرا على المهدية سنة 445هـ. لكنّ ما لبث والده أن التحق به بعد أن احتلّ أعراب بني هلال وبني سليم القيروان سنة 449. وبقي فيها إلى سنة وفاته سنة 454هـ[1].

اختار العماد الأصبهاني الكاتب كثيرا من شعره في «**خريدة القصر وجريدة العصر**»[2] في قسم شعراء المغرب، وذكر أنّه التقى بحفيده الأمير عبد العزيز بن شدّاد بن تميم بدمشق، وأمدّه بديوان جدّه، فاطلّع عليه قال :

«طالعته فاطّلعت على كلّ ما دلّ على جدّه وجودته وجِدّه، وأثبتُّ من شعره ما تترنّح له أعطاف السّامعين اهتزازا».

ونجد في اختيار العماد الأصبهاني من شعر تميم بن المعز قسما كبيرا خاصا بالغزل، منه في التغزّل بامرأة تدعى سعاد، وقد بُشّر بقرب لقائها :

(1) خصه المرحوم محمد المرزوقي بتأليف بعنوانه : «المهدية وشاعرها تميم»، صدر عن المهد القومي للآثار والفنون، تونس 1980، جمع فيه شعره من مظان مختلفة.

(2) ط. الدار التونسية للنشر سنة 1966 بتحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى.

سُعادٌ قد ألمَّتْ بي
ستَمْحو البُعْدَ بالقربِ
كبدْرٍ تَحْتَه غُصْنٌ
على حِقْفٍ من الكثبِ
فَحلَّتْ في حمى قلبي
على التأهيل والرَّحْبِ

ويقول تميم بن المعز في امرأة أخرى ولعلّها نفسها سعاد :

وجاهلة بالحُبّ لم تَدْرِ طَعْمَه
وقَدْ تركتْني أعلم النَّاس بِالحُبّ
أقامَتْ على قلْبِي رَقيباً وحارسا
فليس لدانٍ من سواها إلى قلبي
أدرْتُ الهوَى حتَّى إذا صار كالرَّحَى
جعَلْتُ لَهُ قلبي بمنزلة القُطْبِ

وتظهر رقّة هذا الأمير الصنهاجي في شعره الغزلي، ومنه مقاطع كثيرة تتميّز بالاعتماد على الوسائل البلاغية المختلفة، واختيار الألفاظ الناعمة من قاموس الحب التّقليدي مثل السهاد وذكر الأشواق والدّموع وترديد كلمات من معجم الحب مثل الفؤاد والرقاد والجفون يقول :

أيا مَنْ حلَّ في عيْنِي وقلبي
وجالَ من السُّويدا في السّواد

لِيَهْنِك أنْ حللْتَ حِمَى فُؤادي
وَسلَّطْتَ السُّهَادَ على رُقادي
وأنَّكَ قَدْ خلَعْتَ على جفُونِي
من الأشواق أثواب الحِداد

قد أحبّ تميم بن المعز أميرة من البيت الصنهاجي من بنات الملوك كما عبر عنها في شعره، واجتهد في التعبير عن حبّه لها فلم يتجاوز التّشابيه التقليدية السّائدة في الشعر العربي كتشبيه الوجه بالشمس أو القمر، والقدّ بغصن النّقا، يقول في أسلوب المتجاهل العارف :

أخَوْدٌ ألمَّتْ بنا آنفا
أم الشمسُ والقَمرُ الباهرُ؟
أرتكَ الهلالَ وغُصْنَ النَّقَا
يُميلُه رَوْضُهُ الزَّاهِرُ
بَعَثْتُ إليها بِلحْظِ الهَوى
وَطَرْفي لِمَوعِدِهَا ساهرُ
مُنَعَّمَةٌ مِنْ بناتِ الملُو
كِ فالحُسْنُ في وجْهِهَا حائر

ووصف تميم امرأة تدعى عزّة ولعلّها هذه الأميرة، رسم قوامها ومشيتها، يقول :

سأصْبِرُ مغلوبا علَى بُعْدِ دارنا
ومَا كلّ مشتاقٍ على البُعْدِ صابر

فيا عزَّ قدْ عزَّ الذي أنتِ واصِلُ

كما ذلّ يا عَزَّ الذي أنتِ هاجِرُ

فللغُصْنِ ما شَدَّتْ عليه مناطقُ

وللحقْفِ ما لِيثَتْ عليه المعاجِرُ

تميس كغُصْنِ البانِ يَهْتَزُّ ناعما

وتُثْقلُهَا أرْدَافُهَا والغَدائر

ويناجي تميم حبيبته بأرقّ الأشعار يضمنّها حبّاً صادقا، ورغبة جموحة في اللقّاء، فيقول :

رويدكِ يا مُنَى نفسي

فما في الحبّ من أنَفَهْ

بحقّ الجَمْرِ إذْ تُرمى

بحقّ الحجّ في عَرَفَهْ

بحقّ مِنى ومَنْ فيه

وركْبٍ حلَّ مزدلِفهْ

ألِمِّي بِي ولوْ يَوْماً

لتُحْيِي مُهْجتي الكلِفهْ

* * *

ومن شعر تميم الغزلي الملوكي الرقيق قوله مقارنا دمعه بسيل المطر :

سلي مطر العام الذي عَمّ أرضكُمْ

أجاء بمقدارِ الذي فاضَ مِنْ دَمْعِي

إذا كنتُ مَطبوعاً على الصدَ والجفا

فمن أيْنَ لي صَبْرٌ فأجعلَه طَبْعِي؟

وفي هذين البيتين وفي الكثير من مقطوعات تميم الشعرية نلاحظ محاولته في تجديد بعض الصيغ الفنية والإتيان بعدد من المعاني والتشبيهات والاستعارات الطريفة التي تدل على نبوغ وإبداع أدبي حقيقي، ولا غرابة أن يولع تميم بن المعز بغرض الغزل إذا ما علمنا بجماله الفائق، ووسامة وجهه من خلال ما وصفه بعض الأدباء القدامى.

يقول ابن عذاري عنه في «**البيان المغرب**» : «كان تميم بن المعز جميلا وسيما، مديد القامة، دريّ اللّون، أشمّ، أبلج». ويصفه بأنّه كان «شهما شجاعا حازما عازما يستصغر صعاب الأمور ويستسهل عظام الخطوب».

وقد أجمع المؤرّخون له أنّه كان حسن السيرة، محمود الأثر، محبّاً للعلماء، معظّما لأرباب الفضائل.

يقول العماد الأصبهاني في «**الخريدة**»: كان «عظيم القدر، كريم النّجر، طيّب الذكر، مهذّب الأمر».

ويقول ابن الأثير عنه في كتاب «**الكامل**» : كان شهما شجاعا ذكيا له معرفة حسنة، وكان حليما كثير العفو على الجرائم العظيمة[1].

---

(1) انظر هذه الأقوال وغيرها في كتاب محمد المرزوقي : المهدية وشاعرها تميم، ص 78.

وقد عبّر تميم عن مذهبه في الحياة والملك في هذين البيتين مبينا شجاعته وإيثاره العز والشرف على حياة الذل والمسكنة :

فإمّا الملكُ في شرف وعزّ
عليَّ التاجُ في أعلى السّرير
وإمَّا الموتُ بين ظُبى العوالي
فلستُ بخالدٍ أبد الدّهور

قال صاحب كتاب «**عنوان الأريب**» عن تميم : «كان أميرا فاضلا عالما أديبا حسن السيرة، حميد الآثار، محبا للعلماء، معظما لأرباب الفضائل حتى قصدته الشعراء من الآفاق، وكان يجيزهم الجوائز السنية». إلى أن يقول : «وكان شاعرا مجيدا وله ديوان كبير»[1].

وقال المرحوم الشاذلي بويحيى عن تميم بن المعز بن باديس في أطروحته عن الحياة الأدبية بافريقية في عهد بني زيري : «هو خامس أمراء الدولة الصنهاجية، وكان أيضا شاعرا كبيرا، وراعيا كريما لأهل العلم والآداب، وملكا طبقت شهرته الآفاق». ولاحظ بويحيى أن تميما حقق تجديدا في موضوعات الشعر الكلاسيكي التي أصابها التقادم والتّهلهل وأعاد إليها رونق الشباب، و«أن أشعاره تنضح بالرقة

---

(1) محمد النيفر : عنوان الأريب، الطبعة الأولى، تونس 1351، ج 1، ص 54.

والنعومة عندما يتغنّى بقصصه الغرامية المتعددة، وهي التي تبرز فيها بشكل متميز مغامراته مع فتيات نصرانيات، وهذا الشعور يتصل في الحقيقة بنزوع عند تميم إلى النصارى وشغف خاص بهم وبأسلوب عيشهم وبأعيادهم وطقوسهم الدينية مما يروق به تصويره في أشعاره»[1].

وما تميز به شعر تميم «التأنق والإقبال بوجه خاص على مقطوعات الوصف التي يستعمل فيها الاستعارات الجميلة ومختلف أساليب البديع بمنتهى التوثيق، ويصف تميم في كنف ما يتسم به من دقة الملاحظة ورهافة الإحساس إزاء كل ما يحيط به غناء «بنات الروم» في أعيادهن وجمال الطبيعة وحسن حبيباته الخ...»[2].

ويعدّ الشاذلي بويحيى تميم بن المعز «ملكا شاعرا استحق أن يعد في طبقة الفحول من الشعراء».

* * *

ومما يروى عن تميم هذه الطّرفة، وهي أنّه اشترى مرّة جارية بثمن باهظ فبلغه أن مولاها الذي باعها قد ذهب عقله أسفا على فراقها، فأحضره تميم بين يديه، وأرسل الجازية إلى داره ومعها من الأكسية والأواني وغيرها، ومن الطيب وغيره الشيء الكثير، ثم أمر مولاها بالانصراف بدون أن يعلمه بشيء

(1) الشاذلي بويحيى : الكتاب المذكور، الترجمة رقم 180.
(2) نفسه.

من أمر الجارية، فلما وصل إلى داره ورآها على تلك الحال وقع مغشيا عليه لكثرة سروره، ثم أفاق فلما كان الغد أخذ الثمن الذي باعها به وجميع ما كان معها وحمله إلى قصر تميم، فانتهره وأمره بإعادة جميع ذلك إلى داره»[1].

وكان تميم يعقد المجالس الغنائية، وكم وردت ألفاظ الغناء والآلات الموسيقيّة في شعره مثال ذلك :

بنفسي القناني بأيدي الغواني
وشَدْو القيان وصوت المثاني

ويقول في مقطوعة أخرى :

والطبل يخفقُ والمزامر حوله
تتخالف العيدانُ في المزموم

ويذكر مجلسا من مجالس أنسه :

ومجلس فيه ريحانٌ وفاكهة
نظلّ نلهو به طورا ونغتبط
كأنّ سوسنه المبيضّ حين بدا
رأس لراهبة بادٍ به الشّمط

ويقول عن المغنّين ويسميهم المُسْمعين :

(1) محمد المرزوقي : الكتاب المذكور، وقد نقل الطرفة من كتاب «الكامل» لابن الأثير : ص 80.

فناد بمُسمعِيك لكي يغنُّوا

وحثّ العود من بمٍّ و زير

والبمُّ من العود هو أغلظ أصواته والزير الدقيق من الأوتار أو أحدّها.

وجاء وصف تميم بن المعز بن باديس في «**البيان المغرب في أخبار المغرب**» لابن عذاري المراكشي بما يلي :

«كان رحمه اللّه شهما شجاعا حازما عازما، يستصغر صعاب الأمور، ويستسهل عظائم الخطوب، ويغلب عليه شدة البطش والمبادرة، وهو أحد فحول الشعراء الملوك، وذوي السبق والتقدم في معانيه وبدائعه، حوى فيه الجودة والكثرة، وله ديوان كبير من شعره مشهور».

وله في غلام اسمه مدام من قصيدة طويلة :

«مدام» **يطوف بكأس المدام**

فلم أدر أيَّهما أشرب

فهذا الصديق، وهذا الرحيق

وهذا الهلال، وذي الكوكب

وهذا يجود بألحاظه

وهذي بألبابنا تلعب

وما البدرُ والنجمُ من ذا وذاك

ولكنّه مثل يضرب

ابنه يحيى :

كان ابن تميم أديبا شاعرا أيضا، تولى الملك من سنة 501هـ إلى سنة 509هـ. وبقيت من شعره أبيات منها :

ألا يــا منــتهى طــربي
ومــن لم يَــعْــدُهُا أربــي
إذا مـا كنــتِ حــاضــرةً
شــربت الــراّح بالنُّــخَبَ
ومـهما غــبتِ عن بصـري
فــوا حــزني ووا حــربي

وتوفي يحيى في ذي الحجة سنة 509هـ.

الفهرس



المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب
الهاتف : 683 837 70 - الفاكس : 975 838 70
البريد الالكتروني : mlp@gnet.tn

هـذا الكتاب عن عـدد من ملوك القيروان وأمـرائها الشعـراء الذين بقيت لهم أشعار في كتب الأدب في مختلـف الأغـراض منـها الفخـر والغزل والوصف والحماسة والزهـد، وقـد أبدعـوا أشعـارا يتميـز جلـها بالجـزالـة وابتكـار الصـورة ورقـة العاطـفـة. كانوا أدبـاء متضلعين في اللغة والبلاغة، تعلمنا عنهـم كتـب الأدب والتاريخ التي سجلت كثيـرا من الأخبار عن مجالسهم الأدبية والفنية.





الثمن : 10.000 دت

ر.د.م.ك : 978-9973-02-194-6